فكـرة الصداقـة بيـن أرسطـو وأبي حيان التوحيدي

د. زاهـــد روســـــان
قسم علم الاجتماع - كلية الآداب
جامعة اليرموك

فكرة الصداقة بين أرسطو وأبي حيان التوحيدي

د. زاهد روسان

قسم علم الاجتماع
كلية الآداب - جامعة اليرموك

ملخص :

يعالج القسم الأول من هذه الدراسة فكرة الصداقة عند الفيلسوف اليوناني أرسطو من خلال كتابه «علم الأخلاق إلى نيقوماخوس»، وقد حاول فيه المؤلف تحديد معنى الصداقة وأهميتها في حياة الأفراد وفي حياة الممالك، ثم بيان أنواعها وعلاقتها بالفضيلة والسعادة.

ويرمي القسم الثاني إلى بيان قيمة الصداقة عند أبي حيان التوحيدي والشروط التي تقوم عليها هذه الفكرة، مع محاولة عقد مقارنات بين الصداقة وبعض العلاقات الإنسانية الأخرى كالعلاقة القرابية وعلاقة العشق والمحبة وغيرها من العلاقات.

وقد تبيّن من خلال المعالجة أن كلا المفكريْن غنيّان بالأفكار والتأملات التي تحيط بمختلف أبعاد الصداقة وهي تصلح لأن تشكّل فروضاً قابلة للاختبار في الوقت الراهن.

وقد أنهى الباحث عمله ببيان أوجه الشبه والاختلاف بين الفيلسوفين.

❖ ❖ ❖

The Idea of Friendship Between Aristotle AND Abi Hayan Al - Tawheedi

Dr. Zahid Roussan
Department of Sociology
Faculty of Arts
Yarmouk University

Abstract:

The first part of this paper deals with the notion of friendship as presented in Aristotl's "Ethics to Nicomachus". The author attempts to define the concept of friendship and its meaning and importance in the life of individuals and kingdoms. He explores the different types of friendship and their relationship with virtue and happiness. The second part of the paper explores the value of friendship as presented in the writings of Abi Hayyan al- Tawhidi and the conditions governing this notion. He attempts to make comparisons between friendship and some other human relations as kinship relations, love relations etc. The paper outlines the differences and similarities between the two thinkers.

The treatment makes it clear that both thinkers have rich ideas and contemplation encompassing all aspects of friendship. These can serve as hypotheses to be tested in the present.

المقدمة :

يُحظى موضوع الصداقة باهتمام كبير من لّدُن الفلاسفة وعلماء النفس والأخلاق في الماضي والحاضر، وذلك للمكانة الرفيعة التي شغلتها الصداقة - ولا تزال - بصفتها قيمة إنسانية عظيمة الأثر في حياة الفرد والجماعة والمجتمع.

ولقد كان فلاسفة اليونان هم أول من عُنوا بعلاقات الصداقة والحب فأفلاطون Plato - على سبيل المثال - تحدّث عن الـ «فيليا» Philia في محاورة «ليسيس» Lysis ، وكان معناها في القرن الخامس قبل الميلاد إمّا التماثل في الأخلاق أو التجاذب بين الأضداد، ولكن أفلاطون - كما يبدو - قد وسّع من معنى الصداقة ليربطها بالمحبوب الأول الذي تنبع منه كل صلة بين الناس، ألا وهو «الخير». والصداقة - في نظره - رابطة خلقية وروحية تجمع بين المواطنين الأخيار في حبّ واحد، فتؤلف بين قلوبهم وتجعل منهم مجتمعاً متماسكاً. وهكذا يقول: «وللصداقة أثر عظيم في بناء المدينة وعلاج المجتمع الفاسد، لأن ائتلاف جماعة صغيرة من الناس يشتركون في آراء واحدة يجعل منهم القلب النابض في المجتمع الجديد»[١].

أما أرسطو Aristotle فقد قام بمحاولة أصيلة من أجل تحديد معنى «الصداقة» وحصر أنواعها وبيان ضرورتها للحياة، ومن ثمّ علاقتها بالفضيلة والسعادة ونظم الحكم وأوضاع الناس الاجتماعية كما سنشير إلى ذلك فيما بعد.

هذا وقد عُني التراث العربي والإسلامي الوسيط بموضوع الصداقة والعلاقات الصداقية وأهميتها في ديمومة الحياة وتمدن البشر، وذلك انطلاقاً من قاعدة أرسطو الشهيرة «الإنسان مدني بالطبع». ومن المفكرين العرب الذين عُنوا بالصداقة: ابن المقفع (١٠٦-١٤٢هـ/٧٢٤-٧٥٩م) في كتابه «الأدب الكبير» حيث خصص المقالة الثالثة من هذا الكتاب للحديث عن معاملة الصديق لصديقه[٢]. وكذلك فعل أبو حيان التوحيدي في

كتابه «الصداقة والصديق»، ومسكويه (٣٢٠-٤٢١هـ) في كتابه «تهذيب الأخلاق»، والغزالي (٤٥٠-٥٠٥هـ) في كتابه «بداية الهداية»، وغيرهم من أمثال ابن حزم والماوردي والسهروردي.

وفي العصر الحديث بحث العلماء وخصوصاً علماء النفس، فكرة الصداقة من جميع جوانبها، وبيّنوا الوظائف النفسية التي يمكن أن تنهض بها هذه الصداقة وحصروها في اثنتين: أولاهما خفض مشاعر الوحدة النفسية ودعم المشاعر الإيجابية، وثانيتهما الإسهام في عمليات التنشئة الاجتماعية[٣]، ومن هؤلاء العلماء يمكن أن نذكر بيبلو Peplau وبيرلمان Perlman و «دك» Duck و «أرجايل» Argyle و«مصطفى سويف» وغيرهم، وكل هؤلاء يؤكدون على أهمية التفاعل الاجتماعي وضرورته لأنه يخفض التوتر ويدعم الانفعالات الإيجابية.

وهذا البحث الذي بين أيدينا يسعى إلى التعرف على «فكرة الصداقة عند أرسطو وأبي حيان التوحيدي»، أما فرضياته فيمكن صياغتها على هيئة التساؤلات التالية:

١ - ما مفهوم الصداقة عند أرسطو ؟ وما هي شروطها وأنواعها ؟

٢ - ما مفهوم الصداقة عند أبي حيان التوحيدي؟ وما هي مقوماتها ومعوقاتها ؟ ثم ما الفرق بينها وبين العلاقات الاجتماعية الأخرى؟

٣ - ما أوجه الشبه والاختلاف بين أرسطو وأبي حيان؟

فكرة الصداقة عند أرسطو

لقد خصّص أرسطو Aristotle (٣٨٤-٣٢٢ ق.م) لا أقلّ من كتابين من كتبه البالغة عشرة كتب والتي يضمها سفره الكبير «علم الأخلاق إلى نيقوماخوس»، للحديث عن الصداقة، وهما، في الحقيقة، من أشد كتبه تأثيراً في النفوس وربما أجملها.

يبدأ أرسطو حديثه حول هذا الموضوع بتعريف الصداقة ويقول عنها بأنها حدّ وسط بين خلقين، فالصديق هو الرجل الذي يعرف كيف يكون مقبولاً عن أمثاله كما ينبغي أن يكون. أما الرجل الذي يُفرط في العناية بالآخرين حتى يكون مقبولاً لدى الجميع إلى الدرجة التي تجعله لا يعارض في أي شئ حتى لا يسيء إلى أيّ كان من الأشخاص الذين يقابلهم فيسمى بـ «المساير»، وذلك إن كان يفعل هذا الفعل ليس من أجل منفعة وإنما لولعه بالإرضاء. أما إذا كان يسلك هذا المسلك لأجل منفعته الشخصية كأن يقصد بذلك الإثراء أو الحصول على الأشياء التي تسببها الثروة فهو المتملق. وعلى الضدّ من هذا الخلق، يصف أرسطو الشخص الذي لا يهتم بالقبول من الآخرين، ولا يهمّه أبداً ما يسبّبه للغير من الألم، بل ربما يأخذهم بالمعارضة في كل الأشياء، بأنه الشرس والصعب في المعيشة، وأنه العسر والمشاغب والشكس[٤].

ولا يمدح أرسطو إلا الوضع الوسط الذي يحمل المرء على أن يقبل أو يرفض، كما ينبغي، من الناس أو الأشياء، ويرى أن هذا الوضع يشبه الصداقة كثيراً. ويعلّل رأيه بأننا على استعداد لقبول الرجل الذي ينتسب إلى هذا الوضع الوسط كصديق حقيقي لنا، إذا جمع إلى رغبته في التقبل شعوراً بالميل لنا. ويوحي الشرط الأخير بأن الرغبة في اكتساب قبول الآخرين ليست مطابقة تمام المطابقة للصداقة، ويفسر أرسطو وجهة نظره بأن بعض الناس يرغبون في أن يكونوا مقبولين، ولكن دون أن يشعروا بعاطفة البتّة، فهم يفعلون ما يلزم وما ينبغي أن يفعلوه مع من يعرفونهم ومع من لا يعرفونهم، مع الذين يرونهم عادة ومع الذين لا يرونهم إلا نادراً، ليس لحبّ ولا لبغض، بل لأنه هكذا ينبغي أن تكون المعاملة مع الآخرين[٥].

إن تمييز أرسطو السابق بين مفهومي القبول الاجتماعي Social acceptance وبين الصداقة ينسجم مع التمييز الحديث لهذين المفهومين مع هذا الفارق: وهو أن الدراسات الحديثة استطاعت أن تستخدم المقاييس السوسيومترية للحصول على تقدير كمي لهذا

القبول، بينما عند أرسطو لم يكن كذلك بسبب عدم توافره على الأداة العلمية المتقدمة. لذا فإن الصداقة تتميز بخاصية الاختيار المتبادل عبر الزمن بين طرفي العلاقة الاجتماعية، أمّا القبول الاجتماعي فلا يعدو كونه مؤشراً دالاً على الشعبية الاجتماعية بين أعضاء الجماعة دون أن يلزم عنه وجود علاقة متبادلة بين الشخص وزملائه[٦].

ويعزز أرسطو تعريفه السابق للصداقة بالقول إنها عطف متبادل بين شخصين كل منهما يريد الخير للآخر، على أن هذا العطف لكي يكون حقيقة من الصداقة «لا يصح أن يبقى مجهولاً عند أولئك الذين هم موضوعه»[٧]، بل أن يكون معلوماً فيُحس كل منهما بمشاعر الآخر وأحاسيسه. ويضيف أرسطو شرطاً آخر لكي تتحول العاطفة إلى صداقة ألا وهو عامل الزمان، إذ من الممكن أن تتحول العاطفة مع مرور الزمن إلى أن تصبح عادة ثم تصير صداقة حقيقية لا صداقة لذة ولا صداقة منفعة[٨]. وفي موضع آخر يفصّل أرسطو التعريف بالصداقة فيقول بأن «الصديق هو الذي يعيش معك، والذي يتحد وإياك في الأذواق والذي تسرّ مسراتك وتحزنه أحزانك»[٩]، وبذلك تقوم الصداقة، في نظره، على المعاشرة، والتشابه، والمشاركة الوجدانية. ومن هنا يرفض أرسطو أن يتخذ المرء صديقاً له رغم أنفه، ومن يفعل ذلك على كره منه كان بمثابة إنسان خدع نفسه وخدج غيره، وهذا مخالف لشروط الصداقة التي تعني أن يكون الحب والعطف متبادلاً بين الاثنين[١٠].

وبعد هذا التعريف للصداقة ينتقل أرسطو فيبيّن أهمية الصداقة في حياة الأفراد، بل في حياة الممالك أنفسها، فإن الإنسان كائن مدني إلى حد أنه لا يكاد يعيش إلا محوطاً بكائنات يحبها ويكون محبوباً لديها حتى ولو كان له مع ذلك كل الخيرات. «وكلما كان الإنسان أكثر غنى وعزّ سلطانه وعظم جاهه، شعر بالحاجة إلى أن يكون له أصدقاء حوله»[١١]. فرغد العيش مثلاً لا ينفع الإنسان إذا لم يلازمه أناس أفاضل يحبهم ويحبونه، وحتى اقتناء الخيرات العظيمة وحفظها لا تتم بدون أصدقاء يساعدون مالكها على ذلك. فالأصدقاء إذن هم الملاذ الوحيد الذي يمكننا الاعتصام به في البؤس والشدة،

والصداقة ضرورية للشباب لأنها تعصمهم من الزلاّت عن طريق تقديم نصائحها، والشيوخ أيضاً يحتاجونها فيطلبون عناياتها ومساعدتها التي تقوم مقام نشاطهم، وذلك حين يتقدم بهم السن وتضعف القوى[١٢].

أما المملكة فإنها لا تقوم لها قائمة إلا إذا كان بأفرادها هذه الرعاية المتبادلة بعضهم لبعض، تلك الرعاية التي هي أيضاً من الصداقة وهي عربون الوفاق الاجتماعي. وإن هذا الوفاق هو ما تريد جميع القوانين والمشرّعون استقراره قبل كل شئ، كما تريد كذلك نفي الشقاق الذي هو أضرّ عدو للمدنية. وهنا يحاول أرسطو أن يقيم مقارنة بين قيمتي العدل والصداقة فيشير إلى أن الحب (= الصداقة) كثيراً ما يساعد على إقامة العدل، بل كثيراً ما حلّ محله وسدّ من نقصه، ولكن العدل لا يمكن أن يحلّ محل الحب. يقول بهذا الصدد: «متى أحب الناس بعضهم بعضاً لم تعد حاجة إلى العدل. غير أنهم مهما عدلوا فإنهم لا غنى لهم عن الصداقة، وإن أعدل ما وُجد في الدنيا بلا جدال هو العدل الذي يستمد من العطف والمحبة»[١٣].

فالصداقة إذن ضرورية في الجمعيات البشرية، ولكنها فوق ذلك لها من الجمال والشرف بقدر ما هي عليه من المنفعة، وربما أمكن أن تشتبه بالفضيلة نفسها في غير قليل من جهات النظر. وهذا هو الذي يوجب الكلام عليها في كتاب الأخلاق[١٤].

ويميز أرسطو بين ثلاثة أنواع من الصداقة أو إن شئت فقل ثلاثة أسباب، باعتبار أن الصداقة تلبس ثوب الأسباب التي أوجدتها، وهذه الأنواع هي: صداقة المنفعة، وصداقة اللذة، وصداقة الفضيلة. فالصداقات المبنية على المنفعة واللذة تتغير بتغير القواعد التي أُسّست عليها. فالناس - على سبيل المثال- يحب بعضهم بعضاً للمنفعة، للفائدة التي بها يكون كل منهم للآخر، فهم يتحابون لا لذواتهم بالضبط ولكن من أجل أن يصيبوا خيراً ما وكسباً ما من علاقاتهم المتبادلة. والأمر كذلك أيضاً في حال أولئك الذين لا يتحابون إلا للذة. وهنا تتجلى الذاتية وعدم الموضوعية في صداقة المنفعة وصداقة اللذة؛ ذلك أن

الإنسان متى أحبّ بسبب اللذة فهو لا يبغي في الواقع إلا هذه اللذة نفسها، بمعنى أنه لا يحب من يحبه من أجل ما هو في الواقع، بل هو يحبه لمجرد كونه نافعاً وملائماً، ومن هنا كانت الصداقات التي من هذا القبيل دنيئة واهية تنقضي بانقضاء الحاجة، وهذه الحاجة دائمة التقلب[١٥]. وهذا النوع من الصداقات (أي صداقة اللذة والمنعفة) - في نظر أرسطو - صداقات عرضية تنقطع بغاية السهولة، أي إذا انعدم السبب الذي صيّرهم أصدقاء انعدمت الصداقة أيضاً بسرعة مع العلة الوحيدة التي كانت كوّنتها، والعكس صحيح[١٦]، وهذا النوع من السببية القائم بين المنفعة واللذة من جهة، وبين علاقة الصداقة من جهة أخرى، يدكّرنا بطريقتي «جون ستيوارت مل» S. Mill (١٨٠٦ - ١٨٧٣م) المستعملتين في البحث العلمي وهما : طريقة الاتفاق أو التلازم في الوقوع Method of agreement وتعني أنه إذا وُجد السبب وُجدت النتيجة، وطريقة الاختلاف أو التلازم في التخلف Method of difference وتعني أنه إذا غاب السبب غابت النتيجة[١٧]. وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على أنه كانت لدى أرسطو نظرات صائبة في تحليل بعض القضايا الأخلاقية وفي مقدمتها «الصداقة».

أما الصداقات المبنية على الفضيلة فإن بناءها لا يتزعزع، وإنها لأندر الصداقات وأبطؤها تكوّناً، بل هي أكمل الصداقات، لأن الفضيلة تحيل الصداقة حبّاً متبادلاً قائماً على الاحترام والتشابه؛ وهذا هو معنى الصداقة الحقيقي، وما عداه على سبيل المجاز. يقول أرسطو : «الصداقة الكاملة هي صداقة الناس الذين هم فضلاء والذين يتشابهون لأن أولئك يريدون الخير بعضهم لبعض من جهة أنهم أخيار، وأزيد أنهم أخيار بأنفسهم. أولئك الذين لا يريدون الخير لأصدقائهم إلا لهذه الأسباب الشريفة هم الأصدقاء حقاً. أولئك بأنفسهم، بطبعهم الخاص لا بالعرض، يكونون على هذا الاستعداد السعيد»[١٨] وهذا يعني أن الصداقة الحقيقية القائمة على الحب المتبادل تبقى ما بقي أصحابها أخياراً وفضلاء»، فالفضيلة إذن شئ متين باقٍ، وكذلك الصداقة المرتبطة بها.

غير أنه ينبغي ألاّ يُفهم من دعوة أرسطو إلى صداقة الفضيلة على أنها تخلو من المنفعة واللذة، لا بل إنها تتضمنهما، فهي (أي الفضيلة) مصدر لذة قوية رفيعة، تريد الخير للصديق، وتعينه على أن يحيا أحسن حياة عقلياً وخلقياً، يقول أرسطو: «إن كلا الصديقين خيّر على الإطلاق في ذاته وإنه لخيّر كذلك في حق صديقه، لأن الأخيار هم في آن واحد وعلى الإطلاق أخيار وفوق ذلك نافعون بعضهم لبعض. ويمكن أن يزاد أيضاً أنهم ملائمون بعضهم لبعض ... إذا كان الأخيار أرضياء على الإطلاق وإذا كانوا أيضاً ملائمين بعضهم لبعض فذلك بأن الأفعال التي هي خاصة بنا والأفعال التي تشبه أفعالنا تسبب لنا دائماً لذة، وأن أفعال الناس الفضلاء إما فاضلة أيضاً وإمّا على الأقل مشابهة بعضها لبعض»[١٩].

هذا ويحاول أرسطو أن يربط بين ارتقاء الصداقة والمراحل العُمْرية للشخص أو إن شئت فقُل إنه يريد أن يُدخل عامل الزمان الكافي لتعارف الصديقين وتقدير كل منهما قيمة صاحبه، ولكنها متى توطّدت أركانها باحترام متبادل وتجارب جديّة لا تتغير بعد، بل تبقى على الدهر. وهكذا يشير إلى أن صداقات اللذة إنما توجد عند الأحداث أو الفتيان، فهم «لايعيشون إلا في الشهوة وإنهم يسعون على الخصوص إلى اللذة بل حتى لذة الساعة التي هم فيها»[٢٠]. ومع تقدم السنين والأعمار تتغير اللذات وتصير غير ما كانت عليه في الأمس. لهذا يعقد الشبان علاقاتهم بغاية السرعة وينقضونها بسرعة لا تقل عن الأولى. وأما صداقة المنفعة فإنما توجد على الخصوص في الناس المسنين حيث يدفعهم إليها ضعفهم وحاجتهم إلى من سواهم، وأما الصداقة الحقّة «فلا تكون سريعة البتّة ... وأنها لا تكون تامة إلا بمساعدة الزمان وجميع الظروف الأخرى»[٢١]. ويقصد أرسطو بالظروف الأخرى شروط الصداقة كالمحبة والثقة المتبادلة وحب الخير والمشاركة الوجدانية، ومن خلال تلك الشروط «تصير الصداقة متساوية ومتشابهة بين الجانبين (أي الصديقين)»[٢٢]. وهكذا إذن يمجد أرسطو صداقة الفضيلة ويعدها الوحيدة التي تستأهل

في الحق اسم الصداقة، ليس فقط لأنها صداقة الأخيار، بل ولأنها كذلك تقاوم النميمة والغيبة، حيث «لا يمكن فيها (أي في صداقة الفضيلة) أن يسهل تصديق مزاعم أي شخص ضد إنسان قد اختُبر زمناً طويلاً. إن تلك القلوب يؤمن بعضها لبعض. إنها لم يمر بخاطرها البتّة أن يسيء بعضها إلى بعض وإن لها كل الخلال العميقة الممدوحة التي توجد في الصداقة الحقة، في حين أنه لا شئ يمنع من أن تصاب الصداقات من نوع آخر بهذه الإصابات الوخيمة»[٢٣].

وكما يُدخل أرسطو عامل الزمان في التأثير على الصداقة، يُدخل كذلك عاملاً آخر في التأثير عليها ألا وهو تباعد الأمكنة، وهكذا يقرر أن بُعد الأماكن بين الصديقين لا يذهب على الإطلاق بالصداقة ولكن يوقف مظهرها إيقافاً مؤقتاً، غير أن الغيْبة إن كانت طويلة المدة فيمكن أن تُنهي الصداقة أو تنسيها، ولذلك يقال في الأمثال: «كثيراً ما أودى بالصداقة سكوت طويل»[٢٤]. ومعنى هذا أن تباعد الأمكنة يُضعف من قوة الصداقة أما تقاربها فيزيد الصداقة قوة وتوطيداً.

وبإدخال أرسطو لعاملي الزمان والمكان في التأثير على الصداقة يكون قد سبق الدراسات النفسية الحديثة التي أثبتت إلى حدّ ما فرضيات أرسطو وأفكاره مع هذا الفارق: وهو أن آراء أرسطو كانت نظرية خالصة بينما آراء الحديثين والمعاصرين كانت ميدانية أي مشتقة من الواقع المدروس. وهكذا دلّت بحوث هوروكس Horrocks بالاشتراك مع تومسون G. G. Thompson في «تقلبات الصداقة لدى الأولاد والبنات في بعض النواحي الريفية لمدينة نيويورك» على أن الصداقات تزداد ثباتاً بتقدم العمر الزمني لا فرق في ذلك بين الأولاد والبنات أو المراهقين والمراهقات[٢٥]. هذا بالنسبة لعامل الزمان، أما البُعد المكاني فقد أثبتت الدراسات الحديثة التي قام بها سيجال Segal سنة ١٩٧٤م على الشرطة المتدربين في منطقة Maryland State الأمريكية أن الصداقة بين هؤلاء جذباً أو نفوراً تتأثر بالبُعد المكاني والزماني. غير أن أهم الدراسات التي تتعلق

بالصداقة والبُعد المكاني فهي التي قام بها فستنجر Festinger بالتعاون مع شاشتر Schachter وباك Back (سنة ١٩٥٠)، وقد أثبتت هذه الدراسة الميدانية التي أجريت على مجموعة من الطلبة المتزوجين أنه كلما كانت الأمكنة متقاربة بين الأشخاص كانت الصداقة أقوى وأمتن، وكلما تباعدت الأمكنة والبيوتات عن الأشخاص قلّت قوة الصداقة أو ضعفت[٢٦]. وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على أنه كانت لدى أرسطو أفكار في الصداقة جديرة بالنظرة الفاحصة وأنها يمكن أن تصبح فرضيات قابلة للاختبار.

ويتابع أرسطو حديثه حول الصداقة فيبيّن أن الشيوخ والسوداويين (= الناس أُولي الخلق الجاف أو أولي الكآبة) يُظهرون مَيْلاً أقَلّ إلى الصداقة، وذلك لأنهم يفتقدون بعض الشروط الضرورية للصداقة والتي منها العيشة المشتركة والسكنى بعضهم لبعض، يضاف إلى ذلك أن هؤلاء من طبعٍ عَسِر بسبب جفاف قلوبهم وأنهم لا يجدون إلا لذة أقلّ في علاقات العشرة المتبادلة التي هي العلة الأصلية للصداقة، وبالتالي فلا «أحد يسعى ليقضي أيامه مع واحد ثقيل عليه أو لا يسرّه، فإن الطبع الإنساني على الخصوص ينفر مما يشق عليه ويبحث عما يرتاح إليه»[٢٧].

وحتى الذين يبشوّن بعضهم في وجوه بعض عند اللقاء، فبسبب كونهم لا يعيشون عيشة مشتركة، فالأوْلى بهم أن يُعَدُّوا في زمرة الناس المرتبطين بعطف متبادل، ولا يمكن أن يُعدّوا في الأصدقاء بالمعنى الخاص، مثلهم في ذلك مثل السوداويين[٢٨].

واستكمالاً لشروط الصداقة يذكر أرسطو أن الصداقة الحقة لا تتّجه إلا إلى شخص واحد، لأن الروابط المتعددة ليست عميقة، فمن الصعب أن يُحظى الشخص بحب أناس كثيرين ويرتبط بصداقة كاملة، كما أنه من الصعب أن يحب الشخص أناساً كثيرين في آن واحد، فالصداقة الحقة حسب تعبيره «ضرب من الإفراط في نوعها وهي مَيْل يتغلب على سائر الميول ولا يتّجه بطبعه إلا إلى شخص واحد وليس من الهيّن أن أشخاصاً عديدين يعجبون دفعة واحدة شخصاً بعينه، كما أن هذا ربما لا يكون حسناً»[٢٩].

وهنا نلمس عند أرسطو مسحة تشاؤمية ليس فيها رجاء، فهو - كما ترى - يدعو إلى الصداقة وإلى الخير والفضيلة ثم في النهاية يعد الصداقة نوعاً من الإفراط، وكأنه يقرر أن الصداقة أمر ميؤوس منها. وربما يعود هذا التشاؤم إلى الفساد المستشري في عصره، ويكاد يقنط من القضاء عليه، ولكنه مع ذلك لا يفتأ يحاول جاهداً للحدّ من الفساد والقضاء عليه من خلال دعوته للصداقة، وهذا بحدّ ذاته نوع من التفاؤل والإيمان بقيمة الإنسان وقدرته على تجاوز الصعوبات ولو بشق الأنفس.

ويضيف أرسطو إلى تفسيره السابق للصداقة أنه من الصعب على الشخص أن يكون على وفاق في الخلق مع الآخرين. ويبدو أن عدد الأصدقاء مرتبط بالأساس الذي تقوم عليه الصداقة سواء كان هذا الأساس منفعة أو لذة أو فضيلة. ففي ظل صداقات اللذة يمكن للشخص أن يجرب علاقات مختلفة حتى يجد الصديق الذي يسرّه ويشاركه في لهوه. وفي ظل المنفعة كذلك يمكن للشخص أن يدخل في علاقات متنوعة، وذلك لأن كثيراً من الناس مستعدون لهذه العلاقات، إلا أنها قليلة الحظ لا تلبث إلا لحظة ثم تزول كصداقة التجارة[٣٠].

ويبدو أن تأكيد أرسطو على «حسن الخلق» كشرط لقيام الصداقة الحقيقية وأنه الضامن الأساسي لولاء الصديق ووفائه وصدقه، يتفق مع دراسة «لاجيبا» La Gaipa الحديثة والتي تعد «أن الخصال الأخلاقية قناة لا تسمح إلا بنفاذ الأصدقاء ذوي الأخلاق الحسنة»[٣١].

ثم يعالج أرسطو تأثير المركز الاجتماعي والمكانة الاجتماعية في استقطاب عدد الأصدقاء وتنوعهم، فيشير إلى أنه متى كان المرء في مركز رفيع (أي من أهل الثراء) كان له عادة أصدقاء أكثر تنوعاً؛ فمنهم أصدقاء نافعون وآخرون أصدقاء ملائمون. ولما كان هؤلاء (أي الأثرياء) لا يفكرون إلا في اللذة فقط، فإنهم لا يبغون في حقيقة الأمر

الأصدقاء الملائمين ولا الأصدقاء النافعين، وإنما يبغون «أناساً محبوبين هيّنين أو أناساً حذّاقاً مستعدين دائماً لتنفيذ ما يؤمرون به»[٣٢].

ويرى أرسطو أن الصداقات تقوم في الأساس على المساواة في المكانة الاجتماعية، حيث يؤدي كل صديق إلي الآخر الخدمات ذاتها وإن كليهما يضمر للآخر المقاصد بعينها أو أنهما يتعاوضان مزية بأخرى كأن يتعاوضا اللذة بالمنفعة، ويقرر أنه يجب ألاّ يكون الفرق في منزلة الصديقين كبيراً جداً، وألاّ تكون المسافة بين الأشخاص بعيدة جداً سواء كان من جهة الفضيلة أو من جهة الرذيلة أو من جهة الثروة أو من جهة شئ آخر، لأنه في هذه الحالة كل علاقة مستحيلة. ومن هنا يُقصي أرسطو الملوك من علاقة الصداقة أو أن يكون لهم أصدقاء على هذه الأرض، لأنهم أرفع منزلة من جميع الناس[٣٣].

وينتقل أرسطو بعد ذلك للحديث عن طبيعة الخلافات التي قد تحدث بين الأصدقاء، فيبيّن أنها ترجع إلى الأساس الذي تقوم عليه الصداقة: فإذا ما كان الأصدقاء أصدقاء بالفضيلة فلا تحدث شكاوى ولا معاتبات ولا مراغمة بينهم، وذلك لأنهم لا يطلبون إلا أن يتبادلوا فعل الخير. كذلك لا محل للمنازعات في الصداقات باللذة لأن هذه الصداقة إمّا أن تشبع اللذة أو لا تشبعها، فإن أشبعتها فلا خصومة إذن، وإن لم تشبعها فإن الصداقة تنقطع بسهولة وينفصل الصديقان عن بعضهما ببرودة. أما لاصداقة القائمة على المنفعة فهي - في نظر أرسطو - المعرّضة إلى الشكاوى والملامات، لأن كل واحد من الأصدقاء يحرص على أن يأخذ أكثر مما يعطي[٣٤].

ويؤكد أرسطو مرة أخرى على ضرورة وجود التشابه أو التماثل بين الصديقين وذلك لكي يحفظ الصداقة من الشقاق والخلاف. وعندما لا يتشابه الصديقان يكون التناسب هو الذي يسوّي الصداقة ويحفظها من أن تنقطع. ويرجع أرسطو أسباب الاختلافات في العلاقات بين الشخصين إلى أن أحدهما يكون أرفع من الآخر مكانة، أو أشد نفعاً، فيظن كل جانب منهما أنه يستحق أكثر مما يعطاه، إذ يشعر مقدّم الخدمة النافعة أنه لا يحصل

على نصيبه الذي ينبغي أن يكون مساو لخدماته. وهنا تصير الصداقة من وجهة نظر هذا الشخص تكليفاً واسترقاقاً لا صداقة حقيقية. ويشبّه أرسطو ذلك الموقف بشركة رؤوس الأموال: فمن يدفع نصيباً أكبر يجب أن يكون له في الأرباح حظ أوفر. وفي المقابل يشعر الفرد الأدنى درجة والأقل نفعاً بالضيق والسخط؛ إذ يشعر أن أداء خدمة لمن هو في حاجة إليها واجب على صديقه، وإلاّ فما فائدة المرء أن يكون صديقاً لرجل فاضل قوي إذا لم يستفد من ذلك شيئاً[٣٥].

والحقيقة أن أرسطو من هذه الناحية، أي من حيث إدراكه في وقت مبكر لآثار التماثل في الصديق، سواء أكان هذا التماثل يتجلى في العمر أو المسكن أو مستوى التحصيل الدراسي أو من حيث الطباع الشخصية أو المستوى الاجتماعي والاقتصادي للأسرة ... إلخ- يتفق مع الدراسات الحديثة التي تشير إلى أن حبّنا للناس يزداد كلما كان هناك تشابه بينهم من حيث المواقف، ومن حيث القيم والمعتقدات؛ بل إن مثل هذه المماثلة أو المشابهة تجعل من العلاقات الصداقية أكثر بهجة وانسجاماً وخصوصاً إذا كان الناس المتحابون متجاورون من حيث المسكن[٣٦]. كما يتفق مع نتائج دراسات «مصطفى سويف» التجريبية في ظاهرة الصداقة عند المراهقين والراشدين من الذكور والإناث في المجتمع المصري حيث اتضح لديه أن المراهقين يعللون صداقاتهم باتفاق الآراء والأذواق والعادات والأخلاق كما تبين أن الأصدقاء غالباً ما يتماثلون في الجنس والعمر والدين والمستوى الاجتماعي والاقتصادي، كما لاحظ سويف أن هذه الصداقات تنعقد بسهولة، والفرص المهيئة لانعقادها عادة هي التجاور المكاني في المسكن أو في المدرسة، وصلة القربى العائلية، كما لاحظ كذلك أنها تتفرق بسهولة ويكون ذلك غالباً نتيجة للبُعد المكاني[٣٧]. كما يتفق أرسطو أيضاًمع دراسة «إبشتين» Epstein الذي أشار إلى أنه مع تقدم العمر يختار التلاميذ أصدقاءهم من بين زملائهم الذين يماثلونهم في الاتجاهات وسمات الشخصية والقدرات العقلية[٣٨].

وأخيراً يؤكد أرسطو على أهمية الصداقة من خلال طرحه للسؤال التالي: في أيّ الحالين يكون المرء أحوج إلى الأصدقاء: أفي الرخاء والسعادة أم في الشدة والشقاء؟

يجيب أرسطو على ذلك بالإيجاب في الحالتين: ففي حال السعادة لا يستطيع الرجل السعيد أن يعيش منفرداً بمعزل عن سائر الناس حتى ولو كان يملك جميع خيرات الدنيا، ذلك أن الإنسان موجود اجتماعي بطبعه، والرجل السعيد سليم الطبع يسعى إلى اكتساب القبول من لدن الآخرين وتجنب العزلة لأن الحياة ثقيلة على المعتزل. أمّا في حال الشقاء فالمرء بحاجة إلى أصدقائه ليقدموا له المساعدة، كما أن حضورهم في حدّ ذاته يسرّ هؤلاء التعساء ويشاطرونهم آلامهم كما يخفف من مصابهم. وينهي أرسطو إجابته بأن الحاجة أشدّ إلى الصديق وقت الرخاء، لأن حضوره يجلب سروراً مزدوجاً قوامه المعاشرة اللذيذة معه، إضافة إلى أنه يتمتع وإياه بالخيرات التي عنده. وعلى كل الأحوال يبقى حضور الأصدقاء شيئاً مرغوباً فيه في جميع ظروف الحياة كيفما كانت[٣٩].

لكن الطريف الذي جاء به أرسطو في كتابه «الأخلاق إلى نيقوماخوس» هو أنه أنهى معالجته للصداقة بالدعوة إلى تقليل عدد الأصدقاء سواء أكانوا أصدقاء منفعة أم أصدقاء لذة أم أصدقاء بالفضيلة، وذلك لأن الإنسان - في نظره - لا يستطيع أن يفي بحقوق كل أصدقائه، بل ربما كانت كثرتهم عائقاً للسعادة. يقول بهذا الصدد: يجب أن يكون العدد قليلاً بالنسبة لأصدقاء المنفعة، لأنه لا يمكن إسداء العرف إليهم جميعاً. أما الأصدقاء الذين يُتّخذون لغرض اللذة فيكفي منهم القليل كما هو الحال بالنسبة للتوابل في الأطعمة، وأما بالنسبة للأصدقاء بالفضيلة فينبغي ألا يكون إلا بمقدار ما يمكن أن يحبهم المرء محبة خالصة وبالتالي فعددهم يجب أن يكون محصوراً جداً[٤٠].

وخلاصة القول، فإن أرسطو - من خلال معالجته لموضوع الصداقة - قد طرح عدداً من الأفكار جديرة بالاهتمام: فبعضها يتعلق بأهمية الصداقة في الحياة الإنسانية، وبعضها يتعلق بشروط الصداقة والعوامل المؤثرة فيها مثل البُعد الزماني والمكاني والتشابه

والمشاركة الوجدانية وغير ذلك من العوامل، وهي في الحقيقة يمكن أن تشكّل فروضاً قابلة للاختبار والتجريب على أرضية الواقع من خلال دراسات ميدانية يقوم بها الباحثون والعلماء المختصون، ومن هنا فإننا نهيب بمثل هؤلاء العلماء أن يعيدوا قراءة أفكار أرسطو ونظرياته على ضوء المنهج العلمي الحديث ليروا ما يصلح منها فيأخذوه ويعمموه، وما لا يصلح منها يرفضوه أو يعيدوا بناءه بعد تعديله.

والآن ننتقل إلى فكرة الصداقة عند مفكر إسلامي في العصر الوسيط هو أبو حيان التوحيدي.

فكرة الصداقة عند أبي حيان التوحيدي

خصَّص أبو حيان التوحيدي (٣١٠-٤١٤هـ) لموضوع الصداقة - وهو الموضوع الذي شغل باله كثيراً نظراً لارتباطه بحياته الوجدانية والواقعية البائسة[٤١] - كتابه الشهير «الصداقة والصديق»، وقد جمع فيه العديد من الأقوال المأثورة في الصداقة والتي ذكرها «أهل الفضل والحكمة، وأصحاب الديانة والمروءة، ليكون ذلك كله رسالة تامة يمكن أن يستفاد منها في المعاش والمعاد»[٤٢]. ويذكّرنا هذا النهج بما فعله أبو بكر الطرطوشي (+ ٥٢٠هـ) في كتابه «سراج الملوك» حيث كان هذا الأخير يطرح المسألة المراد معالجتها، ثم يحشد لها ما قاله الفلاسفة والحكماء والأدباء وأهل العلم والدين والسياسة، وهو نهج يتسم في كثير من الأحيان بالوعظ وتقديم النصيحة والإرشادات أكثر من مجابهة الواقع وتقديم الحلول الناجعة لها. ولا ننسى أن نذكر أن تجارب التوحيدي الشخصية نتيجة تطوافه في أنحاء الدولة ومعاشرته الطبقات الدنيا قد ساهمت بشكل أو بآخر في صياغة فكرة الصداقة عنده.

يُعرّف التوحيدي الصديق بأنه لفظ مشتق من الصدّق، وهو خلاف الكذب، أو من الصَّدق، حيث يقال: رُمْحٌ صَدْق أي صلب، وعلى الوجهين يكون الصديق صادقاً (أي غير

كاذب) إذا قال أو تكلّم. ويكون صَدْقاً (أي صلباً جاداً) إذا عمل. ولذلك يقال «صُدْقة المرأة، وَصَداقها وصُدْقتها كله منتزع من الصِّدق والصّدق، وكذلك الصادق، والصِّدِّيق، والصدوق والصَّدقة، والمتصدق والمصدق، كل هذا متواخ» (= متناسب) [٤٣] ».

والصداقة عند التوحيدي عاطفة اصطفائية يختارها الإنسان بمحض إرادته واختياره ليكوّن بها مع الأفراد الآخرين صلات وروابط يسدّ بها ويشبع حاجاته ومتطلباته ويضمن أمنه واستقراره النفسي، على أن يؤخذ بعين الاعتبار رغبة وإرادة الآخر الذي يودّ هو أيضاً إشباع حاجاته ومتطلباته ويضمن أمنه واستقراره النفسي. أما إذا دخلت «الرهبة» في العلاقة كعنصر مضاد للإرادة والرغبة، فإن ذلك يفسدها ويجعلها صعبة التحقيق، يقول أبو حيان على لسان أبي سليمان السجستاني: «الصداقة التي تدور بين الرغبة والرهبة شديدة الاستحالة، وصاحبها من صاحبه في غرور، والزلّة فيها غير مأمونة، وكسرها غير مجبور» [٤٤]. ومن هنا يستبعد التوحيدي صداقة الملوك لأنها قائمة على القهر والهوى، فهو يقول: «فأما الملوك فقد جلّوا عن الصداقة، ولذلك لا تصح لهم أحكامها، ولا توفي بعهودها، وإنما أمورهم جارية على القدرة، والقهر، والهوى، والشائق، والاستجلاء، والاستخفاف، وأمّا خدمهم وأولياؤهم فعلى غاية الشبه بهم، ونهاية المشاكلة لهم» [٤٥].

وهكذا إذن تكون الصداقة عبارة عن عملية تفاعل بين شخصين متماثلين في الإرادات والاختيارات والشهوات والطلبات، وهذه المماثلة ثمرة ارتباط روحي، تشبه إلى حدّ ما اتحاد ذاتين بين رجلين متصوفين. وهنا يستشهد التوحيدي بتعريف أرسطو للصديق الذي يقول فيه: «الصديق هو أنت، إلا أنه بالشخص غيرك» [٤٦].

والصداقة أيضاً فضيلة إنسانية يراد تحقيقها بين الناس وإن كان ذلك بصعوبة بالغة، وهي ككل عاطفة أساسية مرتبطة بصميم الحياة الشعورية، تتفرع عنها جملة من الفضائل

الخلقية والسلوكية تضمن لها البقاء والنماء كـ «العشرة والمؤاخاة والألفة، وما يلحق بها من الرعاية، والحفاظ، والوفاء، والمساعدة، والنصيحة، والبذل، والموآساة، والجود، والتكرم»[٤٧].

وينطلق التوحيدي في بحثه عن علاقة الصداقة والصديق كعلاقة اجتماعية من عبارة أرسطو الشهيرة «الإنسان مدني بالطبع»، ذلك أن الإنسان الفرد - في نظره - لا يكاد يعيش إلا محوطاً بكائنات تتبادل معه التعاون والوفاق من أجل الوصول إلى مبتغاهم في العيش الكريم والسعادة الحقيقية، وإلاّ فلا معنى لفطرية الاجتماع أو لطبيعته. يقول أبو حيان: «وبيان هذا أنه لا بد من الإعانة، والاستعانة، لأنه لا يكمل وحده لجميع مصالحه، ولا يستقل بجميع حوائجه»[٤٨].

على أن هذا الدافع الفطري للاجتماع لا يكفي لتحقيق إنسانية الإنسان، إذ لابدّ له من أمور أخرى يقتضي الواجب القيام بها لتحقيق هذه النزعة الإنسانية ومضاعفتها، وذلك يكون بالتفاعل مع الآخرين ومعاشرتهم، يقول أبو حيان: «وإذا كان (أي الإنسان) مدنياً بالطبع كما قيل، فبالواجب ما يُعرض في أضعاف ذلك من الأخذ، والعطاء، والمجاورة والمحاورة، والمخالطة والمعاشرة، ما يكون سبباً لانتشار الأمر»[٤٩]. ومعنى ذلك أن الإنسان محتاج إلى من يحاوره ويخالطه فيأخذ عنه ويعطيه من أفكار وخبرات وثقافات، أي أنه يحتاج إلى رفيق صالح وصديق مخلص لكي يتمدن ولا يتوحش أو ينعزل. واستناداً إلى هذه الحاجة الضرورية، فإن الإنسان - يقول التوحيدي - «لا يخلو.. من جار ، أو مُعامل أو حميم، أو صاحب، أو رفيق أو سكن، أو حبيب، أو صديق، أو أليف أو قريب، أو بعيد، أو وليّ، أو خليط، كما لا يخلو أيضاً من عدو، أو كاشح، أو مداج، أو مكاشف، أو حاسد، أو شامت، أو منافق، أو مؤذٍ، أو منابذ، أو معاند، أو مذلّ، أو مضلّ، أو مغلّ»[٥٠].

ويشدد التوحيدي على علاقة الصداقة بشكل خاص والعلاقة الاجتماعية بشكل عام ومن ثم رفضه في أن يعيش الإنسان وحده، وذلك في ردّه على أحد العلماء الذي كان يشكك في أن يكون هناك أصدقاء حقيقيون، يقول التوحيدي مُعلّقاً: «قد شدّد هذا الشيخ (يقصد عبد الله بن محمد الثوري)... ولستُ أرى هذا المذهب محيطاً بالحق، ولا معلّقاً بالصواب، ولا داخلاً في الإنصاف، فإن الإنسان لا يمكنه أن يعيش وحده، ولا يستوى له أن يأوي إلى المقابر، ولا بدّ له من أسباب بها يحيى، وبأعمالها يعيش، فبالضرورة ما يلزمه أن يعاشر الناس، ثم بالضرورة ما يصير له بهذه المعايشة بعضهم صديقاً، وبعضهم عدواً، وبعضهم منافقاً، وبعضهم نافعاً، وبعضهم ضاراً»[٥١].

والملاحظ في النص أيضاً أنه ليس بالضرورة أن تؤدي معاشرة الناس ومخالطتهم إلى تكوين علاقات صداقة؛ بل العكس قد يحدث، فقد تظهر علاقات سلبية كالعداوة والنفاق والحسد والإيذاء، كما قد تظهر علاقات يغلب عليها الجانب النفعي أو الضار. والذي يحدّد نوع هذه العلاقة هو الإنسان نفسه من خلال رغباته وأهدافه وطموحاته، ويشير التوحيدي إلى ضرورة التكيف مع الآخرين والتلاؤم معهم حتى وإن كانوا متباينين في أخلاقهم وقيمهم وأفكارهم ودينهم؛ لأن في ذلك فائدة تعود بالخير عليه شخصياً إمّا عاجلاً وإما آجلاً، يقول بهذا الصدد «ثم بالضرورة يجب عليه أن يقابل كل واحد منهم بما يكون له مردّ من دين، أو عقل، أو فتوة، أو نجدة، ويستفيد هو من ذلك كله ما يكون خاصاً به، وعائداً بحسن العقبى عليه إما في العاجل، وإما في الآجل»[٥٢]. وهنا يبدو التوحيدي وقد خرج على فكرته الموضوعية حول الصداقة، فبدل أن تكون الصداقة فضيلة إنسانية تعود بالخير العميم على الناس كلهم، وإذ بها عنده وفي هذا النص يكرّسها لخدمة الفرد ومصلحته الشخصية، وذلك واضح من قوله «ويستفيد هو من ذلك كله ما يكون خاصّاً به، وعائداً بحسن العقبى عليه، إما في العاجل، وإما في الآجل».

وبعد هذا التوضيح لمفهوم الصداقة والصديق عند أبي حيان ننتقل إلى شروط الصداقة والعوامل التي تساعد على قيامها.

يشير التوحيدي، مستشهداً بأحد الكتاب، إلى أن هناك عوامل متعددة تساعد على قيام الصداقة واستمراريتها؛ لكنه لم يفصّل القول فيها، فهو يذكرها وكأنها معروفة لدى الجميع، وهي: «الدين أولاً، ثم بالجوار ثانياً، ثم بالصناعة ثالثاً، ثم بالمماحلة رابعاً، ثم بالمنشأ خامساً، ثم بالمعاقرة سادساً، ثم بالتجربة سابعاً، ثم بالإلف ثامناً، ثم بالميلاد تاسعاً، ثم بانتظام هذه كلها عاشراً»[٥٣].

والملاحظ في النص أن أبا حيّان يعطي الدين الدرجة الأولى من حيث الفاعلية، حيث أنه يُذهب الغلظة والأنفة والتحاسد والتنافس، ويجمع القلوب ويحض على التعاون والتناصر والتآلف، وهذا شئ متوقع من التوحيدي وغيره من فلاسفة الإسلام؛ ذلك لأن الدين الإسلامي - إذا ما استعرضنا تاريخ الأمة الإسلامية - كان هو الرابطة الروحية التي وحدّت بين الشعوب رغم اختلاف قومياتهم وجنسياتهم، حتى إذا استُبعد هذا العامل لسبب أو لآخر، كان مصير الأمة التفكك والانحلال في جميع مرافق الحياة ومن هنا يعد التوحيدي - حين يصنف طبقات مجتمعه - أن أصحاب الدين والورع رغم قلّتهم «فربما خلصت لهم الصداقة لبنائهم إياها على التقوى وتأسيسها على أحكام الحرج، وطلب سلامة العقبى»[٥٤].

ثم تأتي بعد ذلك تباعاً بقية العوامل الأخرى التي تدفع الأفراد إلى تكوين العلاقات الصّداقية: كالجوار في السكنى والاشتراك في مهنة أو صناعة واحدة أو بالمماحلة وهي تبادل الطُّرف والملاحة ... الخ، وكلها في النهاية تؤدي إلى تكوين علاقات اجتماعية تهدف إلى سد وإشباع حاجات ومتطلبات الأفراد الذين يكوّنون هذا الاتصال أو التفاعل الاجتماعي، لكن الأهم هو أن تشترك هذه العوامل كلها إذ ما أريد لعلاقة الصداقة أن ترتقي إلى الأعلى وصولاً إلى النموذج المثالي من العلاقات.

غير أن ما يسترعي الانتباه في هذه العوامل هو عامل المنشأ الذي ينشأ فيه الأصدقاء أو إن شئت فقل المكان الاجتماعي أي الوسط الذي تجري فيه الحوادث الاجتماعية حيث يلتقي الأشخاص ويتحدثون إلى بعضهم حديثاً طويلاً أو قصيراً، وهذا من شأنه أن يزيد في قوة ترابطهم، وهو يختلف عن المكان الفيزيائي. وهذا العامل في الحقيقة يذكّرنا بما ذهب إليه عالم الاجتماع الحديث ليوبولد فون فيزي» Leoplod Von Wiese (١٨٧٦-؟) صاحب النزعة الشكلية في علم الاجتماع، حين تحدث عن «الحادثة الاجتماعية» و «المكان الاجتماعي»، و «المسافة الاجتماعية». وهذه الأخيرة عبارة عن الأثر الذي تحدثه «الحادثة الاجتماعية» من خلال «المكان الاجتماعي» في علائق الناس كأن تزيد في قوة تماسكهم وتعاونهم[٥٥]. فإذن هناك شبه بين «فون فيزي» والتوحيدي من حيث أهمية المكان الاجتماعي في تكوّن العلاقات الاجتماعية بما فيها علاقة الصداقة.

وثمة شروط أخرى يضيفها التوحيدي فيجعل من علاقة الصداقة علاقة مثالية وهذه الشروط يستخلصها أبو حيان من خلال إيراد ظاهرة واقعية شاهدها بنفسه، وهي تمثل من وجهة نظره، أسمى ما وصلت إليه الصداقة العملية بين شخصين متحابّيْن يمتازان بفضائلهما وعلمهما وصفائهما الخلقي والنفسي رغم ما بينهما من فوارق المشاغل العقلية والمهنية والاختصاص والمنشأ وتدخّل الطوالع والفلك. والشروط هي:

أولاً : إن علاقة الصداقة تتطلب «ممازجة نفسية، وصداقة عقلية، ومساعدة طبيعية، ومواتاة خلقية...»[٥٦] واتحادهذه العناصر الأربع يمكن أن تؤدي إلى إيجاد نوع من الثقة المتبادلة، وهذه الأخيرة تخلق بدورها طمأنينة وسكوناً لا يرثّان على الدهر، ولا يحولان بالقهر.

والحقيقة أن ربط التوحيدي لعلاقة الصداقة بالتوافق النفسي أو الممازجة النفسية، يتفق مع نتائج معظم الدراسات النفسية الحديثة، ذلك أن فقدان علاقات الصداقة الملائمة

من شأنه أن يؤدي إلى عواقب سلبية في كل مراحل الحياة وبشكل خاص في مرحلتي الطفولة والمراهقة. وإلى هذا يشير «أرجايل» Argyle إلى أن افتقاد القدر المناسب من الأصدقاء يؤدي إلى اختلال في الصحة النفسية والجسمية، ففيما يتصل بالصحة النفسية تبيّن أن الأشخاص الذين يفتقدون الأصدقاء يكونون أكثر استهدافاً للإصابة باضطرابات نفسية منها الاكتئاب والقلق والسأم، كما يعانون من التوتر والخجل الشديد والعجز عن التصرف الكفء عندما تضطرهم الظروف إلى التفاعل مع الآخرين. وفيما يتصل بالصحة الجسمية فقد لاحظ الأطباء ضعف مقاومتهم للأمراض الجسمية وتأخرهم في الشفاء منها، بل وقد تزيد بينهم معدلات الوفاة بعد الإصابة بتلك الأمراض بالمقارنة بالمرضى الذين يتمتعون بعلاقات اجتماعية طيبة تمدهم بالمساندة الوجدانية[٥٧].

كما يتفق التوحيدي في إشارته إلى ضرورة «التقارب في القدرات العقلية» بين شخصين من أجل تكوين علاقة الصداقة، يتفق مع نتائج الدراسات الحديثة التي تقول بأن التفاوت الشاسع بين الأصدقاء في القدرات العقلية وفي التفكير أو السمات الشخصية قد يشكّل تهديداً للذات، إذ توضح بعض الدلائل أن عقد صداقة مع قرين يتمتع برصيد هائل من القدرات العقلية أو يتحلى بمميزات اجتماعية يفتقدها ويرغب فيها الطرف الآخر قد يكون مصدراً للتنغيص والتهوين المستمر من شأن الذات[٥٨].

ثانياً : إن الصداقة الحقيقية تقتضي المماثلة في الإرادات والاختيارات والشهوات والطلبات. وهذه المماثلة هي نتاج ارتباط روحي مستتر، غير محدد بزمان أو مكان، وهذا ما يشبه - كما ذكرنا في وقت سابق - اتحاد ذاتين عند المتصوفة. وقد أشار التوحيدي في كتاب المقابسات إلى ذلك عند تعريف أرسطو للصديق بقوله : «الصديق هو أنت إلا أنه بالشخص غيرك»[٥٩]. وقد فسر أبو سليمان السجستاني أستاذ التوحيدي هذه العبارة فاعتبرها آخر درجات الموافقة التي

يتصادق المتصادقان بها، ثم قال: «ألا ترى أن لهذه الموافقة أولاً منه يبتدئانها، كذلك لها آخر ينتهيان إليه، وأول هذه الموافقة توحدّ، وآخرها وحدة، وكما أن الإنسان واحد بما هو إنسان، كذلك يصير بصديقه واحداً بما هو صديق، لأن العادتين تصيران عادة واحدة، والإرادتين تحولان (= تتحوّلان) إرادة واحدة، ولا عجب من هذا، فقد أشار إلى هذه الغريبة الشاعر بقوله:

روحه روحي، وروحي روحه إن يشأ شئتُ، وإن شئتُ يشأ»[٦٠]

ثالثاً: إن اختلاف الناس في المشاغل العقلية والفلسفية والمهنية والقضائية وغيرها لا تمنع من تكوين الصداقة. وهذا الاختلاف شئ شكلي لا علاقة له بمضمون الصداقة؛ فهو: خلاف الشكل للشكل، لا خلاف الضد للضد، فقد جمعت الصديقين المشاكلة على العلم وفرّقهما الاختلاف بالفن[٦١].

ويقول أبو حيان في موضع آخر مشدّداً على ألاّ علاقة للصداقة بالمظاهر الخارجية كالشكل والصورة والخلقة: «ما السبب في تصافي شخصين لا تشابه بينهما في الصورة، ولا تشاكُلَ (= تشابُه وتماثُل) عندهما في الخلْقة، ولا تجاور بينهما في الدار، كواحد من فرغانة وآخر من تاهَرْت، وهذا طويل قويم، وهذا قصير دميم، وهذا شَخْت (= النحيف الجسم) عَجْف (= الغليظ من العظام)، وهذا عِلْج (= الغليظ الجسم) جِلْف (= جاف).. وبينهما من الخلاف والاختلاف ما يُعجِّب الناظر إليهما، والفاحص عن أمرهما». ومع ذلك «تراهما متمازجيْن في الأخذ والإعطاء، والصدق والوفاء، والعَقْد والولاء، والنقص والنماء، بغير نحلة عامة، ولا مقالة ضامّة ولا حال جامعة، ولا طبيعة مضارعة». ويشير التوحيدي كذلك إلى أنّ علاقة الصداقة لا تقتصر على جنس معين كالذكورة والأنوثة، بل كلا الجنسين يرغبان في تكوّن علاقات الصداقة والمحبة:[٦٢]

رابعاً : إن الصداقة إذا توافرت لها ظروف ملائمة تستطيع أن تسمو فوق المادة وتكتسب مع الزمن صفاء روحانياً وانسجاماً عميقاً هما مصدر الفرح والغبطة والبهجة في حياة الأصدقاء[٦٣].

ولا ينسى التوحيدي أن يضع مقاييس للصداقة أو شروطاً لها وهي كالآتي:

كرم العهد، رعاية الغيب، مجاذبة الخلاف، لطف اللسان، بذل المال، توقّر الشهادة، احتمال الكل، حسن الاستبانة، تقديم الوفاء، رفض الموجدة، بذل المعونة، الثبات على الثقة، حفظ الذّمام، كظم الغيظ، حمل المؤونة، الصبر على الضراء، إخلاص المودة، استعمال الحلم، طلاقة الوجه، المشاركة في البأساء[٦٤].

وإزاء هذه التشديد لعلاقة الصداقة وشروطها ومقاييسها، يلفت التوحيدي انتباهنا إلى أن هناك معوّقات تحول دون تحقيق علاقة الصداقة، فينبغي إذن تجنّبها وتحاشيها، ومن هذه المعوقات يذكر أبو حيان: الحسد والشحناء والتباغض والعداوة والنفاق والرياء، والغيرة والتنافس الذي يخالطه نوع من التعصب والمحك والمكابرة، واختلاف الطبائع الإنسانية، وغيرها كثير.. فهذه كلها من شأنها أن تخلق نفوراً اجتماعياً وبالتالي تفككاً وانحداراً في القيم الاجتماعية والخلقية والنفسية[٦٥].

فالحسد - على سبيل المثال - الذي هو «ألأم الطبائع»[٦٦] يزرع الخلاف بين الناس؛ لأن الحسود «لا يحب لأحد خيراً، ويجتهد في الإضرار بهم وينفسه كي يلحقهم بذلك مكروه»[٦٧]. والتنافس يقطع العلائق بينهم (أي بين الناس»[٦٨].

أما المراء فهو «يفسد الصداقة القديمة، ويحلّ العقدة الوثيقة»[٦٩]. ومن هنا قيل: «لا أماري صديقي، فإما أن أكذبه، وإما أن أغضبه»[٧٠]. وأما النميمة فتثير الشقاق بين الناس، وأما المزاح وفلتاته فهو مفتاح الضغائن. وقل مثل ذلك في بقية المعوّقات التي تثير الفرقة والتباعد بين الناس.

واستكمالاً للعلاقات الصَّداقية وخوفه من أن تنقلب إلى الضد، يذكر لنا التوحيدي واجبات المرء تجاه صديقه والتي يمكن تلخيصها على شكل نقاط وهي كالآتي: القيام بأعبائه في حال غيابه، صيانته وحفظه ومعاونته عند حضوره، وملاطفته إذا جفا، مكافأته إذا أنجز عملاً ووُفّق فيه، الحديث عنه الحديث الطيب إذا ما التقى مع أصدقائه الآخرين، إذا لقي عدوّه كفّ عنه غُرب العادية ودفع الظلم والشرّ عنه، الابتهاج لرؤيته وإبداء البشاشة في وجهه، كتمان سرّه، المواساة عند الشدة، إقالة العثرة، عدم تصديق ما يقال عنه، ومعاتبته إذا ما وقع خلاف معه بدلاً من قطع الصلة به نهائياً[٧١].

ثم ينتقل أبو حيان ليفرّق بين صداقة الأخيار وصداقة الأشرار، فيذكر - مستنداً إلى كتاب كليلة ودمنة - أن صحبة الأخيار تورث الخير، وصحبة الأشرار تورث الشر، كما يفرق بينهما من حيث سرعة الاتصال والانقطاع، فيذكر أن المودة بين الصالحين بطيء انقطاعها، سريع اتصالها، كآنية الذهب، بطيئة الانكسار، هينة الإعادة، والمودة بين الأشرار سريع انقطاعها، بعيد اتصالها، كآنية الفخار التي يكسرها أدنى شئ ولا وصْل لها[٧٢]. ويضيف إلى هذا أن الصديق السيء هو الذي يحتاج إلى المدارة في معاملته، وهو الذي يُلْجِأُ صديقه إلى الاعتذار في كل صغيرة وكبيرة لبعده عن التسامح[٧٣]. ويوضح أبو حيان أن العتاب ضروري بين الصديقين إذا وقع خلاف بينهما، ولكن بدرجة معتدلة، ذلك أن «كثرة العتاب إلحاف، وتَرْكُه استخفاف»[٧٤].

وفي هذا المقام يذكر التوحيدي صفات أصدقاء السوء وهي:

إنهم يتفرقون عند النكبة، ويُقبلون مع النعمة، ومن شأنهم التوصل بالإخلاص والمحبة إلى أن يظفروا بالأنس والثقة، ثم يوكلّون الأعينَ بالأفعال، والأسماع بالأقوال، فإن رأوا خيراً ستروه، وإن رأوا شراً أو ظنوه أذاعوه ونشروه[٧٥].

وفي هذا السياق يشير التوحيدي إلى تغير الأصدقاء وألاّ أحد يبقى على حاله، وهكذا يفرّق بين ضربين من الأصدقاء، أحدهما لا يحسن الكلام ولكن قد يحسن العمل نحو صديقه، والثاني يحسن الكلام ولا يحسن العمل. يقول بهذا الصدد مستشهداً بأحد العلماء: «أدركت أقواماً كان الرجل منهم لا يلقى أخاه شهراً أو شهرين، فإذا لقيه لم يزده على كيف أنت وكيف الحال، ولو سأله شطر ماله لأعطاه، ثم أدركت أقواماً لو كان أحدهم لا يلقى أخاه يوماً سأله عن الدجاجة في البيت، ولو سأله حبّة من ماله لمنعه»[٧٦].

أمّا فيما يتعلق بالفروق ما بين الصداقة والعلاقة الاجتماعية الأخرى كالعلاقة القرابية وعلاقة العشق والمحبة وغيرها من العلاقات إن وُجدت فيجيب أبو حيان على ذلك بأن عقد أولاً مقارنة بين الصداقة والقرابة، ورأى أن الصداقة قد تتقدم على القرابة وتَفْضلها، ويأتي هذا التقديم أو التفضيل بسبب تصدع العلاقة الثانية (أي القرابية) حيث لم تعد هذه العلاقات قادرة على استيعاب الواقع الجديد وما طرأ عليه من اتساع في حجم المجتمع ومن تحلل في البناء الاجتماعي مما أدى إلى ضعف تلك العلاقات القرابية، وعندئذ لم تعد القبيلة هي الضامن لصيانة الفرد الذي ينتمي إليها وإنما حلّت الدولة محلها، ونتج عن ذلك ضعف الولاء القبلي[٧٧]. ومن هنا طرح التوحيدي فكرة الداقة لعلها توفر نوعاً من التضامن والتعاضد لأبناء الأمة التي عجزت عن توفير علاقة القرابة التي أصبحت كما يبدو علاقة ثانوية. وهنا يستشهد التوحيدي بقول ابن المقفع في إجابته على سؤال وُجِّه إليه ونصّه : هل الصديق أحب إليك أم القريب؟ فأجاب «القريب أيضاً يجب أن يكون صديقاً»[٧٨]. ويقول أبو حيان في موضع آخر: «الصديق نسيب الروح والأخ نسيب الجسم»[٧٩]. وهذا يعني أن التوحيدي وإن كان يقدّم علاقة الصداقة (= علاقة الروح) على العلاقة القرابية (= علاقة الجسم). إلا أنه يرى أن الاثنتين إذا وُجدتا معاً واتخذتا شكلاً متفاعلاً متبادل التأثير، فإن ذلك سيدعم التضامن والنسق العلائقي.

وكما ميّز الوحيدي بين علاقة الصداقة وعلاقة القرابة، ميّز كذلك بين الأولى وبين علاقة العشق التي هي شكل آخر من أشكال العلاقات الإنسانية. فهو يرى أن الصداقة تقوم على التشابه وتلاقي الأخلاق بينما لا يلاحظ وجود تشابه بين العشاق، وبالتالي فإن العاشق والمعشوق ليسا من زمرة الأصدقاء[٨٠]، ويميل إلى القول بأن الأنس بالصديق أقوى من الأنس بالعشيق[٨١]، لأن الصديق يصلح لكل شئ: للجد والهزْل، وللقليل والكثير وهو روضة العقل وغدير الروح[٨٢]. أما العشيق فإنه متعة للعين، ولكنها متعدة محوطة بالريبة والشك، كما يؤدي التعلق بالمعشوق إلى إثارة الشّجن والحزن، وفي معظم الأحوال لا تدوم العلاقة بين العاشق والمعشوق[٨٣].

وثمّة فرق آخر بين علاقة الصداقة وعلاقة العشق، فالأولى يبرز فيها النضوج العقلي والبُعد عن النزوات والشهوات، كما يبرز فيها أثر الخبرة والتجربة الإنسانية والسداد في الرأي، يقول أبو حيان: «الصداقة أذهب في مسالك العقل وأدخل في باب المروءة، وأبعد من نوازي الشهوة، وأنزه عن آثار الطبيعة، وأشبه بذوي الشيب والكهولة، وأرمى إلى حدود الرشاد، وآخذُ بأهداب السّداد، وأبعد من عوارض الغرارة (= الغفلة وحداثة السن) والحداثة»[٨٤]. فالتوحيدي - إذن كما يُفهم من النص - يُعْلي من قيمة الصداقة لأنها تحمل أسمى صفات الإنسان، والأقدر على كبح جماح غرائزه.

أما الثانية وهي العشق أو المحبة[٨٥] أو العلاقة وغيرها من المترادفات كالكلف، والشغف والتَتيّم والتهيّم، والهوى، والصّبابة... إلخ فكلها أمراض نفسية ليس للعقل فيها فاعلية، «ولهذا تسرع هذه الأعراض إلى الشباب من الذكران والإناث، وتنال منهم، وتملكهم، وتحول بينهم وبين أنوار العقول، وأداء النفوس، وفضائل الأخلاق، وفوائد التجارب»[٨٦]، ولهذا يحتاج هؤلاء إلى الزواجر، والمواعظ، ليفيئوا إلى ما فقدوه من اعتدال المزاج، والطريق الوسط»[٨٧].

ويُلفت التوحيدي انتباهنا - من خلال النص السابق - إلى ضرورة توخي الحذر وأخذ الحيطة من سيطرة علاقة العشق بين الشباب، الذكور والإناث، هكذا دون ضوابط؛ لأن من شأن ذلك أن يؤدي في النهاية إلى مزيد من التفكك والانحلال في القيم الاجتماعية. وهنا يدخل عامل التنشئة الاجتماعية كعامل ضابط للسلوك بما يتلاءم وتماسك المجتمع واستقراره.

وأبو حيان من هذه الناحية، أي من حيث تفريقه بين علاقة الصداقة القائمة على العقلانية وبين علاقة العشق القائمة على الانفعال، يكون قد سبق ماكس فيبر Max Weber (١٨٦٤ - ١٩٢٠) حين ميّز هذا الأخير بين السلوك الاجتماعي الانفعالي أو الغريزي الذي تسيّره العواطف والغرائز من أجل أن يشبع الإنسان حاجته ودوافعه هكذا دون ضابط - وبين السلوك الاجتماعي العقلي الذي يتميز بالتعقل والحكمة والمنطق والبصيرة والإدراك الثاقب للأمور والقضايا والمشكلات[٨٨]. وهذا إن دلّ على شئ فإنما يدل على سبق الفكر العربي الإسلامي في كثير من القضايا على الفكر الغربي المعاصر، رغم أن الأول لم يكن يملك الأداة العلمية التي يملكها الثاني.

ويشير التوحيدي إلى فَرْقٍ ثالث بين الصداقة والعشق وهو أن العلاقة بين الصديق وصديقه هي أكثر عمقاً واتساعاً وثباتاً من علاقة العاشق بالمعشوق، ذلك لأن «مناغاة الصديق أعبث بالروح، وأندى على الفؤاد من مغازلة المعشوق، لأنك تفزع بحديث المعشوق إلى الصديق، ولا تفزع بحديث الصديق إلى المعشوق»[٨٩]، وبعبارة أخرى، «إن المرء يفضي إلى الصديق بأسرار حبّه بينما لا يبوح لعشيقه بأسرار حبه»[٩٠].

كذلك ميّز التوحيدي بين «الصداقة» وبين «المعارف». فهذه الأخيرة، في نظره، عبارة عن علاقات لا تنهض على الصداقة ولم تصل إلى درجتها ولا على الاشتراك الفعلي في نشاط ما، وإنما ترتكز على القرب الفيزيقي في المقام الأول، ومن أمثلتها علاقات الزمالة

أو الجيرة أو عضوية في ناد أو في مؤسسة اجتماعية أو في محل عمل دون صداقة أو مشاركة فعلية. يقول التوحيدي مستشهداً بأبي سليمان السجستاني في تفسيره لإحدى عبارات أرسطو: «وليس يبعد هذا عليكم إلا لأنكم لم تروا صديقاً لصديق، ولا كنتم أصدقاء على التحقيق، بل أنتم معارف يجمعكم الجنس المقتبَس، وينظمكم النوعُ المقتبس من الإنسان، ويؤلفكم بعد ذلك البلد أو الجوار أو الصناعة أو النسب» [٩١]. والتوحيدي من هذه الناحية يتشابه إلى حدّ ما مع «أودين» Oden وزميله اللذين قاما بتصنيف العلاقات الاجتماعية إلى أربعة مستويات متدرجة من حيث العمق والخصوصية على النحو التالي: الأصدقاء المقربون Close Friends والأصدقاء الاجتماعيون Social Friends والمشاركون في النشاط وأخيراً «المعارف» [٩٢].

وأخيراً نأتي إلى طرح هذا السؤال وهو: هل استطاع التوحيدي بفكرة الصداقة أن يحل قضايا مجتمعه بما فيها قضاياه نفسه؟

فيجيب الباحث على ذلك بالقول: إن نظرة التوحيدي إلى الصداقة كانت أقرب إلى المثالية [٩٣] إذ لم تتجاوز الصيغة النظرية التي كتبها، وذلك واضح من العبارات التي أوردها كقوله مثلاً «كأني هو فيها أو هو أنا» [٩٤] و «الصديق هو أنت إلا أنه بالشخص غيرك»، إضافة إلى أن أفكاره التي طرحها عن الصداقة لم تُستقى كلها من الواقع الذي عاشه بل كان أكثرها نقلاً عن الحكماء والشعراء وأصحاب الديانات، ثم إنه كان في كثير من الأحيان يعبر عن نوازعه الوجدانية والعاطفية، وبالتالي يكون التوحيدي قد قدّم حلولاً غير واقعية لمشاكل واقعية، مما جعل أفكاره حبراً على ورق لا نجد من يصغي إليها أو يتبنّاها ويطورها، وحتى الأفكار التي طرحها أبو حامد الغزالي أو مسكويه أو الماوردي حول الصداقة هي أيضاً مثالية، مثلها في ذلك مثل التوحيدي، ثم إن التوحيدي نفسه يعترف بصعوبة تحقيق فكرة الصداقة الحقيقية وذلك واضح من قوله: «وإذا أردت الحق

علمت أن الصداقة، والألفة، والأخوة، والمودة، والرعاية، والمحافظة قد نُبذت نبذاً، ورُفضت رفضاً، ووطئت بالأقدام، ولُويت دونها الشفاه، وصُرفت عنها الرغبات» [٩٥]، وقوله أيضاً مستشهداً بإجابة أعرابي على سؤال نصه: كيف أنسك بالصديق؟ «وأين الصديق، بل أين الشبيه به، بل أين الشبيه بالشبيه به؟ والله ما يوقد نار الضغائن والذحول (= الثأر والعداوة) في الحي إلا الذين يدعون الصداقة، وينتحلون النصيحة، وهم أعداء في مُسوك (= جلود) الأصدقاء [٩٦]. وقوله هذا يشير إلى التشكيك في قيام صداقة حقّه، وهنا يتساءل الباحث كيف يدعو التوحيدي إلى الصداقة وهو نفسه فضل الغربة والعزلة عن مجتمعه وبالتالي الانطواء على الذات أليس هو القائل: «أمسيت غريب الحال، غريب اللفظ، غريب النحلة، غريب الخلق، مستأنساً بالوحشة، قانعاً بالوحدة، معتاداً للصمت، مجتنفاً (= مائلاً أو لازماً) على الحيرة، محتملاً الأذى» [٩٧].

أيّاً كانت الأسباب والظروف (الموضوعية والذاتية) التي دعته إلى تفضيله الغربة، فالمهم هو أنه بات ينبذ الصداقة ويحيد عنها لصعوبة تطبيقها، فكيف يحق له إذن أن يدعو إليها؟!.

ولكن هذا لا يعني أن فكرة الصداقة وطرحها كانت خاطئة. لا، بل بالعكس فهي ضرورية ومهمة في ديمومة الحياة وتمدّن البشر لأنها - كما يقول أحد الباحثين العرب المعاصرين - «نسيج الحياة الاجتماعية والعلاج الاجتماعي لكل الأمراض التي تفرزها الحضارات والمدنيات خلال تطورها السريع» [٩٨]، ولكن الخطأ يكمن في كيفية المعالجة وكيفية مجابهة الواقع، ومن هنا كانت ضرورة الدراسات الميدانية لمعرفة الظروف النفسية والاجتماعية المصاحبة لنشأة الصداقة ونموها، ومن ثم تقديم المقترحات التي قد تدعم مهارات الصداقة وتحسن التفاعل الاجتماعي، وهذا ما كان غير متوافر عند التوحيدي ولا عند غيره من مفكري القرون الوسطى؛ ذلك لأن العلم في عصره لم يتطور إلى المستوى الذي هو عليه في الوقت الحاضر.

وخلاصة القول فإن التوحيدي - مثله في ذلك مثل أرسطو - غني بالأفكار والتأملات التي تدور حول الصداقة وأبعادها وشروطها ومقاييسها، وهي في الحقيقة تكشف عن بصيرة ثاقبة وخبرة متعمقة، ولكنها مع ذلك لا تغني - رغم ما فيها من ثراء- عن الدراسات الميدانية الواقعية لهذا الموضوع، فهي وهذه الدراسات الميدانية يمكن أن تشكّل علاقة تكامل، فالأولى تقدم الإطار النظري والأفكار القابلة للاختبار، والثانية تقوم بفحص هذه الأفكار والفرضيات وتطبيقها على أرضية الواقع فتأخذ ما يصلح وترفض ما يبطل بطلانه.

والآن ننتقل إلى المقارنة بين فكرة أرسطو عن الصداقة وبين فكرة التوحيدي عنها.

مقارنة بين فكرة التوحيدي عن الصداقة وفكرة أرسطو عنها :

بالرغم من الفارق الزمني بين التوحيدي وأرسطو، إذ عاش الأول في القرن الرابع الهجري (= العاشر الميلادي) والثاني في القرن الرابع قبل الميلاد، وبالرغم من الظروف المختلفة التي عاشها كل منهما، إلا أنهما يتشابهان من جهة ويختلفان من جهة أخرى في معالجة فكرة الصداقة. ونشير فيما يلي إلى أوجه التشابه والاختلاف بين الاثنين:

أوجه التشابه :

١ - كلاهما يبين أهمية الصداقة كعلاقة اجتماعية في حياة الأفراد والجماعات وأن الإنسان لا يكاد يعيش إلا محوطاً بكائنات تتبادل معه المحبة والتعاون والوفاق من أجل حياة كريمة وسعادة حقيقية، وإلاّ فلا معنى لأن يكون الإنسان مدنياً بالطبع. يقول التوحيدي، وهو في ذلك متأثر بأرسطو: «وقد قال الأوائل: الإنسان مدني بالطبع. وبيان هذا أنه لابدّ من الإعانة والاستعانة، لأنه لا يكمل وحده لجميع

مصالحه، ولا يستقل بجميع حوائجه، وهذا ظاهر». ويضيف قائلاً بأنه لابدّ من أمور أخرى لتحقيق هذه النزعة المدنية ومضاعفتها، وذلك يكون بالتفاعل مع الآخرين عن طريق «الأخذ والعطاء»، والمجاورة، والمخالطة والمعاشرة»[٩٩]. أما أرسطو فقد سبق التوحيدي في بيان أهمية الصداقة وأنها إحدى الحاجات الأشد ضرورة للحياة، لأنه لا أحد يقبل أن يعيش بلا أصدقاء ولو كان له مع ذلك كل الخيرات. «وكلما كان الإنسان أكثر غنى وعزّ سلطانه وعظم جاهه، شعر، على ما يظهر، بالحاجة إلى أن يكون له أصدقاء حوله»[١٠٠].

٢ - كلاهما يتشابه في أن الصداقة تقوم على المعاشرة والتشابه والمشاركة الوجدانية. فالتوحيدي يشير إلى أن الصديقين الحقيقيين هما اللذان يتبادلان الثقة والمشاعر والمساعدة حتي تصير عادة كل منهما إلى عادة واحدة، وتتحول الإرادتان إلى إرادة واحدة. وفي هذا المستوى يكون التفاهم بينهما أسرع وأوضح ما يكون حتى يكفيهما التعبير عن العتاب بلمحة ضئيلة أو إشارة أو كناية لا يفهمها غيرهما[١٠١]. وأرسطو يشير هو الآخر إلى هذا التشابه والمشاركة حينما يقول: إن الصديق هو ذلك الذي يعيش معك والذي يتحد وإياك في الأذواق والذي تسرّه مسراتك وتحزنه أحزانك[١٠٢]. والفيلسوفان من هذه الناحية يكونان قد سبقا الفكر الحديث من حيث ضرورة توافر شرط التماثل والتشابه في الصديق.

٣ - كلاهما متفقان على أن إدخال «الرهبة» أو «القهر» في علاقات الصداقة يضرّ بهذه العلاقة ويفسدها، ذلك لأن الصداقة في نظرهما عاطفة اصطفائية يختارها الإنسان بمحض إرادته واختياره ليكوّن بها مع الآخرين صلات وروابط يسدّ بها حاجاته ومتطلباته ويضمن أمنه واستقراره. فالتوحيدي يقرر على لسان أبي سليمان السجستاني أن «الصداقة التي تدور بين الرغبة والرهبة شديدة الاستحالة، وصاحبها

من صاحبه في غرور، والزلّة فيها غير مأمونة، وكسرها غير مجبور» [١٠٣]. ومن هنا يستبعد التوحيدي صداقة الملوك لأنها تقوم على القهر والهوى وليس الرغبة حيث يقول: «فأما الملوك فقد جلّوا عن الصداقة، ولذلك لا تصح لهم أحكامها، ولا توفي بعهودها، وإنما أمورهم جارية على القدرة، والقهر، والهوى، والشائق، والاستحلاء، والاستخفاف» [١٠٤].

وكذلك يفعل أرسطو، إذ يقول: «إنه لا ينبغي أن يتخذ المرء صديقاً رغم أنفه، فإذا أدّى المرء على كرهٍ منه كان كهيئة الذي انخدع في باديء الأمر وأنه قَبِلَ معروفاً من شخصٍ ما كان ينبغي أن يقبله منه» [١٠٥]. فالقهر إذن والرهبة مخالفة لشروط الصداقة التي تقوم على الحب المتبادل بين الاثنين. وكذلك يُقصي أرسطو الملوك من علاقة الصداقة ولكن ليس بسبب القهر والرهبة كما يذهب التوحيدي بل بسبب ثرائهم وغناهم وعلوّ منزلتهم [١٠٤].

٤ - كلاهما يتشابهان في أنّ كلاً منهما يحرص على عامل المكان والزمان وحُسن الخلق في توطيد العلاقة وتوثيقها، بحيث إذا ابتعدت الأمكنة والأزمنة أو ساء الخلق تعرضت الصداقة للاهتزاز والتفسخ، مع اختلاف كل منهما في التعبير. فالتوحيدي يركّز على الجوار في السكنى(أي المكان) وعلى المنشأ (= المكان الاجتماعي) كشرطين من شروط الصداقة وعاملين مساعدين على استمراريتها وبقائها، فهو يقول: «الصداقة - أطال الله مدتك - التي وكّدها الله بيننا بالدين أولاً - ثم بالجوار ثانياً ... ثم المنشأ خامساً» [١٠٧]. أما أرسطو فيشير إلى أن تباعد الأمكنة بين الصديقين من شأنه أن يخفف من علاقة الصداقة ولكن لا يُذْهبها على الإطلاق، فهو يوقفها إيقافاً مؤقتاً [١٠٨] ومفهومٌ ضمناً أن تقارب الأمكنة يزيد الصداقة قوة وتوطيداً.

أما بشأن «الزمان» فيشير التوحيدي إلى أهميته وضرورته وذلك على شكل سؤال، فيقول: «لِمَ كان الإنسان إذا أراد أن يتخذ عدة أعداء في ساعة واحدة قدر على ذلك، وإذا قصد اتخاذ صديق ومُصافاة خِدْنٍ واحد لم يستطع إلا بزمان واجتهاد وطاعة وغُرْم؟ ... ألا ترى أن الفتق أسهل من الخياطة، والهدم أيسر من البناء، والقتل أخف من التربية والإحياء؟[١٠٩] ويقول أيضاً مستشهداً بكليلة ودمنة: «المودة بين الصالحين بطيء انقطاعها سريع إيصالها»[١١٠].

وكذلك يشير أرسطو إلى ضرورة الزمان الكافي لتعارف الصديقين وتقدير كل منهما قيمة صاحبه، فيقول. «الصداقة لا تكون سريعة البتّة ... إنها لا تكون تامة إلا بمساعدة الزمان وجميع الظروف الأخرى ...»[١١١].

أمّا بشأن حُسن الخلق فيشير التوحيدي إلى ضرورته، ويذكر بهذا الصدد أن من حق الصديق على صديقه القيام بأعبائه في غيابه، وحفظه ومعاونته عند حضوره وملاطفته إذا جفا، ومكافأته إذا أنجز عملاً ووُفّق فيه، والحديث عنه الحديث الطّيب مع الأصدقاء الآخرين، ورفع الظلم والشر عنه، والابتهاج لرؤيته، وكتمان سره، وعدم تصديق ما يقال عنه... إلى غير ذلك من الأخلاقيات التي ينبغي على الصديق الوفاء بها إزاء صديقه[١١٢]. وكذلك يفعل أرسطو، فهو يؤكد على «حُسن الخلق» كشرط لقيام الصداقة الحقيقية، وإنه الضامن الأساسي لولاء الصديق ووفائه وصِدْقه، ولذلك يقول: «إنه ينبغي أيضاً أن يجرب (الأصدقاء) بعضهم بعضاً وأن يكونوا على وفاق في الخُلُق»[١١٣].

وهما من هذه الناحية يسبقان «لاجيبا» La Gaipa الذي يقول بأن «الخصال الأخلاقية قناة لا تسمح إلا بنفاذ الأصدقاء ذوي الأخلاق الحسنة»[١١٤].

٥ - يلمس الباحث عند كليهما (التوحيدي وأرسطو) مسحة تشاؤمية ليس فيها رجاء من وراء دعوتهما إلى الصداقة. يقول التوحيدي بهذا الصدد: «وإذا أردتَ الحق علمت أن الصداقة والألفة، والأخوة والمودة، والرعاية والمحافظة قد نُبذت نبذاً، ورُفضت رفضاً ووُطئت بالأقدام ولُويت دونها الشفاه، وصُرفت عنها الرغبات»[١١٥]. وكذلك قوله في إجابته على سؤال: كيف أنسك بالصديق؟: «وأين الصديق، بل أين الشبيه به، بل أين الشبيه بالشبيه به؟ واللّه ما يُوقِد نار الضغائن والذحول (=العداوة) في الحي إلا الذين يدّعون الصداقة، وينتحلون النصيحة، وهم أعداء في مُسوك (= جلود) الأصدقاء»[١١٦]، وذلك تعبير عن فقدان الصديق وصعوبة إيجاده.ويؤكد على ذلك بقوله: علينا أن «نثق بأنه لا صديق ولا من يتشبه بالصديق»[١١٧].

أما أرسطو فيعد الصداقة ضرباً من الإفراط في نوعها.وهي مَيْل يتغلب علي سائر الميول ولا يتجه بطبعه نفسه إلا إلى شخص واحد، وليس من الهيّن أن أشخاصاً عديدين يُعجبون دفعة واحدة شخصاً واحداً بعينه، كما أن هذا ربما لا يكون حسناً[١١٨]. فقوله إذن عن الصداقة بأنها «ضرب من الإفراط» أو أنها لا تتجه «إلا إلى شخص واحد» أو أن فعل الصداقة «ربما لايكون حسناً» إنما هو تقرير منه بأن الصداقة أمر ميؤوس منها.

وجوه الإختلاف :

وإذا كان أبو حيان التوحيدي قد تأثر بأرسطو وأخذ عنه كثيراً من أقواله، وأنهما كانا متشابهين في بعض الوجوه، إلا أن التوحيدي لم يكن صورة مكررة من أرسطو؛ ذلك لأن له تفكيره الخاص وتجربته الخاصة وكذلك ظروفه. ذلك أن مفهوم الصداقة في الحضارة

الإسلامة التي صدر عنها مفهوم أبي حيان التوحيدي والذي يستند إلى القيم الإسلامية والدعوة إلى المساواة بين البشر في الإنسانية يختلف عن مفهوم الصداقة في المجتمع اليوناني القديم الذي يقوم علي التمييز الطبقي بين الأحرار والعبيد. ومن هنا اختلف المفكران في أمور عدة:

١ - في المنهج: أبو حيان نهج في معالجته لموضوع الصداقة منهجاً وعظياً يقوم على تقديم النصائح والإرشادات، إذ كان يطرح المسألة المراد معالجتها ثم يحشد لها ما قاله الأدباء والعلماء والحكماء والفلاسفة وأهل الدين، وهو من هذه الناحية يشبه أبا بكر الطرّطوشي في كتابه «سراج الملوك».

أما أرسطو فقد نهج منهجاً عقلياً، إذ كان يبدأ بتحديد موضوع بحثه، ثم يستعرض شتى الآراء التي أدلى بها سابقوه في هذا الموضوع لكي يتناولها بالنقد والتحليل، فمنهجه إذن منهج علمي.

٢ - ينفرد أبو حيان بإعطاء «الدين» عاملاً من الدرجة الأولى في قيام الصداقة[١١٩]، وذلك لأنه يجمع القلوب ويحض على التعاون والتناصر، ويُذهب الغلظة والأنفة والتحاسد والتنافس، مَثَلُه في ذلك مثل فلاسفة الإسلام في القرون الوسطى وخصوصاً ابن خلدون، غير أن هذا الأخير قدّم «العصبية» على الدين.

أما أرسطو فيرى أنه من التدنيس المجوني أن يقال إن للآلهة أصدقاء، «لأن لهم علواً غير متناه في كل نوع من أنواع الخير[١٢٠]، وهذا يعني أن الدين لا يتدخل في شؤون الصداقة.

٣ - يمتاز أرسطو بتقسيمه للصداقة إلى ثلاثة أنواع: صداقة منفعة، وصداقة لذة، وصداقة فضيلة. فالصداقات المبنيّة على المنفعة واللذة تتغير بتغير القواعد التي أسست عليها: فصداقة المنفعة صداقة عرضية تنقطع بانقطاع الفائدة، أما صداقة

اللذة فتنعقد بسهولة وتنحل بسهولة بعد إشباع اللذة أو تغير طبيعتها. وأما صداقة الفضيلة فهي أفضل صداقة وأدومها.

بينما لا تجد عند التوحيدي مثل هذا التقسيم، فهو إما أن تكون هناك صداقة حقيقية وهي صداقة الأخيار، وانقطاعها بطيء، وتقابلها عند أرسطو صداقة الفضيلة ، وإما ألاّ تكون، وهي صداقة الأشرار التي لا تورث إلا الشر، وهي سريعة الانقطاع.

٤ - يشكل مفهوم «الوسط» (Meson) المفهوم المركزي في فكرة الصداقة بل في فلسفة الأخلاق عند أرسطو. وهذا المفهوم يعني، عنده، القدرة على التوجه الصحيح، على اختيار السلوك الملائم. إن الإنسان الصادق، في رأي أرسطو، يختار الوسط بين الإفراط والتقتير. وهكذا تكون الفضيلة وسطاً بين رذيلتين، وتكون الصداقة وسطاً بين الملق والشراسة[١٢١].

أما أبو حيان فلا نجد عنده مثل هذه الحلول الوسط، فهو أقرب إلى التطرف، ذلك لأنه يؤمن بأنه إما أن يكون هناك صديق حقيقي وإما ألاّ يكون، إمّا أن يكون الإنسان خيّراً وإما أن يكون شريراً، وبالتالي فليس هناك اعتدال أو أمور وسط، ومن هنا جاء تفريقه بين صحبة الأخيار التي تورث الخير، وصحبة الأشرار التي تورث الشر[١٢٢]، ومن هنا أيضاً جاء تقريره بأن للصداقة وجهين متناقضين: الوفاق والخلاف، الهجر والصلة، العتب (= كثير العتاب) والرضا، والصدق والرياء، الخداع والاستقامة، الالتواء والاستكانة، الاجتماع والاعتذار[١٢٣].

تلك بشكل عام كان أوجه الشبه وأوجه الاختلاف بين المفكرين الكبيرين أرسطو وأبي حيان التوحيدي، وهما في الحقيقة يحتاجان إلى مزيد من البحث والتنقيب وإعادة النظر في كل ما كتباه حول موضوع الصداقة، هذا الموضوع القديم الحديث الذي كان يشغل الفلاسفة القدماء بنفس الدرجة الذي يشغل بال العلماء والمفكرين الحديثين.

الخاتمـــة

من خلال عرضنا لآراء أرسطو وأبي حيان التوحيدي حول مفهوم الصداقة اتضح لنا ما يلي:

١ - إن الصداقة فكرة ضرورية ولا غنى عنها للإنسان، ولهذا لابدّ من أن نقرّ بأهميتها في الحاضر والمستقبل كما في الماضي. أما أهميتها في حياتنا المعاصرة فتكمن في تقريب الصلات وتحسينها بين أفراد الأسرة. فالصداقة بين الآباء والأبناء والأقارب من أهم عوامل التقارب العاطفي والقضاء على كثير من أسباب الشقاق والتباعد فضلاً عمّا لها من أهمية بين أفراد المجتمع الواحد، بل بين الدول وخاصة العربية التي هي في أمسّ الحاجة إليها؛ ذلك لأنها (أي الصداقة) تخفض التوتر وتقرّب المسافات وتنشر المحبة القائمة على الاحترام المتبادل.

٢ - إن الصداقة تتميز - من جملة ما تتميز - بخاصية الاختيار المتبادل عبر الزمن بين طرفي العلاقة الاجتماعية. فليس ثمّة قهر أو عنف يفرضه طرف على آخر وإلاّ تحوّلت الصداقة إلى علاقة تابع ومتبوع، وقاهر ومقهور. هناك إذن نوع من الديمقراطية يمارسها ذوو العلاقة، إن شاؤوا رضوا بهذه العلاقة وإن أبوا رفضوها أو لفظوها. ومن هنا جاء إقصاء الملوك عن الصداقة إمّا بسبب جبروتهم أو بسبب ثرائهم وغناهم وعلو منزلتهم.

٣ - الصداقة الحقيقية في نظر أرسطو وأبي حيان هي الصداقة القائمة على الفضيلة، وهي أرفع الدرجات، لأن الفضيلة تحيل الصداقة حبّاً متبادلاً قائماً على الاحترام والتشابه، وما عداه على سبيل المجاز.

٤ - الإنسان واجدٌ في الصداقة تنفساً عن الضيق والكرب، وتعويضاً عمّا لحقه أو يلحقه من إخفاق وفشل في حياته العملية وما أكثرها. ثم هي (أي الصداقة) وسيلة إلى

تفريغ مخزون الإنسان العاطفي المكبوت، وقد أحسن التوحيدي في حديثه عن الصداقة حين قال: «شفاء للصدر، وتخفيف من البرحاء (= الشدة)، وانجياب للحرقة، واطراد للغيظ، وبرد للغليل، وتعليل للنفس»[١٢٤].

٥ - وأخيراً تجدر الإشارة إلى أن الصداقة تختلف باختلاف عمر الإنسان أو وضعه الاجتماعي، وهذا ما لمسناه عند أرسطو الذي حاول أن يميز بين أسس الصداقة في مختلف مراحل الحياة الإنسانية، فقرر أن اللذة أساس صداقة الفتيان، أما المنفعة فهي أساس صداقة الشيوخ. كما حاول أن يربط بين الصداقة وأوضاع الناس الاجتماعية، فقرر تعذر قيام الصداقة في الأحوال التي تكون فيها المسافة بعيدة جداً بين الأشخاص من جهة الفضيلة والرذيلة (أي كأن يكون أحدهما شريراً والآخر فاضلاً) أو من جهة الثروة أو من أية جهة أخرى.

* * *

الهوامش

١ - الأهواني ، أحمد فؤاد ، أفلاطون ، مجموعة نوابغ الفكري الغربي ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ، دار المعارف ، بلا تاريخ ، ص ٥٤ - ٥٥ .

٢ - ابن المقفع ، عبد الله ، الأدب الكبير ، صححه وقدم له محمد مضر أبو المحاسن القاوقجي ، القاهرة ، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح ، ١٩٦٠م ، ص ٥٨ - ١٠٢ .

٣ - انظر : أبو سريع ، أسامة سعد ، الصداقة من منظور علم النفس ، عالم المعرفة ، الكويت ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، ١٩٩٣م /١٤١٤هـ ، ص ٥٨ - ٦٩ .

٤ - أرسطو : علم الأخلاق إلى نيقوماخوس ، ترجمة أحمد لطفي السيد ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٩٤م ، ج ١ ، ص ٢٥٥ - ٢٥٦ ، ج ٢ ، ص ٣٩ - ٤١ .

٥ - المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٠ .

٦ - انظر :

Lindzey, Gardner. and Byrne, Donn. " Measurement of Social choice and interpersonal attraciveness ", In : G.lindzey and E. Aronson (Eds.)

The Handbook of Social Psychology, Vol. 2 (2nd ed) London : Addison-Wesley, Pubishing company 1968, pp. 452 - 525 .

٧ - أرسطو ، المصدر السابق ، ص ٢٢٦ .

٨ - المصدر نفسه ، ص ٢٩٤ .

٩ - المصدر نفسه ، ص ٢٨٨ .

١٠ - المصدر نفسه ، ص ٢٦٩ .

١١ - المصدر نفسه ، ص ٢١٩ .

١٢ - المصدر نفسه ، ص ٢٢٠ .

١٣ - المصدر نفسه ، ص ٢٢١ .

١٤ - المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

١٥ - المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

١٦ - المصدر نفسه ، ص ٢٢٨ .

١٧ - Mill. John stuart. Asystem of logic, Ratiocination and Inductive, beinge a connected view of Princoples of evidence and the method of scientific, Investigation University of Toronto Press, 1971, Book 3, pp. 388 - 391 .

١٨ - أرسطو ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ .

١٩ - المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

٢٠ - المصدر نفسه ، ص ٢٢٩ .

٢١ - المصدر نفسه ، ص ٢٣١ .

٢٢ - المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

٢٣ - المصدر نفسه ، ص ٢٣٤ .

٢٤ - المصدر نفسه ، ص ٢٣٦ ، وانظر أيضاً ص ٢٨٦ .

٢٥ - اقتباساً من : سويف ، مصطفى ، الأسس النفسية للتكامل الاجتماعي ، دراسة ارتقائية تحليلية، الطبعة الخامسة ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٩٤م ، ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .

٢٦ - Berscheid, E and Walster, E. Interpersonal Attaction, Addison Wesley Pubblishing Co, London, 1968, pp. 29 - 31 .

٢٧ - أرسطو ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٣٧ .

٢٨ - المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

٢٩ - المصدر نفسه ، ص ٢٤٠ .

٣٠ - المصدر نفسه ، ص ٢٤٠ - ٢٤١ .

٣١ - اقتباساً من : أسامة سريع ، الصداقة من منظور علم النفس ، مرجع سابق ، ص ١٧٣ .

٣٢ - أرسطو ، المصدر السابق ، ص ٢٤٢ .

٣٣ - المصدر نفسه ، ص ٢٤٢ - ٢٤٥ .

٣٤ - المصدر نفسه ، ص ٢٦٧ .

٣٥ - المصدر نفسه ، ص ٢٧٢ - ٢٧٣ ، ٢٧٥ .

٣٦ - انظر :

Zimbardo, philipe G. Psychology and life. Twelfth Edition, London, Scott, Foreman and company, 1977, p. 625 .

٣٧ - سويف ، مصطفى ، مرجع سابق ، ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .

٣٨ - انظر : أسامة أبو سريع ، مرجع سابق ، ص ٢٢٦ .

٣٩ - أرسطو ، مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ٣٠٩ - ٣١٢ ، ٣١٩ - ٣٢١ .

٤٠ - المصدر نفسه ، ص ٣١٥ - ٣١٧ .

٤١ - حول حياته وواقعه المأساوي ، انظر :

- التوحيدي ، علي أبو حيان ، الامتاع والمؤانسة ، صححه وضبطه وشرح غريبه : خليل المنصور، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ج ١ ، ص ٣٠ .
- ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، بيروت ، دار المستشرق ، بلا تاريخ ، ج ٨ ، ص ١٤٦ - ١٤٧ .

٤٢ - أبو حيان التوحيدي ، الصداقة والصديق ، تحقيق : إبراهيم الكيلاني ، الطبعة الثانية ، دمشق ، دار الفكر ، بيروت ، دار الفكر المعاصر ، ١٩٩٦م ، ص ٢٩ .

٤٣ - المصدر نفسه ، ص ٨٨ .

٤٤ - المصدر نفسه ، ص ٣٢ .

٤٥ - المصدر نفسه ، ص ٣٢ .

٤٦ - المصدر نفسه ، ص ٦٩ . وانظر أيضاً كتاب : المقابسات للتوحيدي ، تحقيق وشرح حسن السندوبي ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، المطبعة الرحمانية ، ١٩٢٩م/١٣٤٧هـ ، ص ٣٥٩ .

٤٧ - الصداقة والصديق ، ص ٢٩ .

٤٨ - المصدر نفسه ، ص ١٦١ .

٤٩ - المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

٥٠ - المصدر نفسه ، ص ١٦٠ - ١٦١ .

٥١ - المصدر نفسه ، ص ١١٢ .

٥٢ - المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

٥٣ - المصدر نفسه ، ص ٨٤ .

٥٤ - المصدر نفسه ، ص ٣٣ .

٥٥ - Konig, Rene. International Encylopedia of the Sciences. Vol. 15, the Macmillan company and the Free press, New York, 1968, p. 547 - 548 .

٥٦ - الصداقة والصديق ، ص ٣٠ .

٥٧ - Argyl, Michael. "Social Competence and mental health", in : M Argyle (Ed), Social Skills and health, London and New York, Methuen and Co. Ltd, 1981, pp. 159 - 187 .

٥٨ - انظر : أسامة أبو سريع ، مرجع سابق ، ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .

٥٩ - المقابسات ، مصدر سابق ، ص ٣٥٩ .

٦٠ - الصداقة والصديق ، ص ٦٩ .

٦١ - الصداقة والصديق ، ص ٣١ .

٦٢ - أبو حيان التوحيدي ومسكويه ، الهوامل والشوامل ، نشره : أحمد أمين والسيد أحمد صقر ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥١م/ ١٣٧٠هـ ، ص ١٢٩ - ١٣٠ .

٦٣ - انظر : الكيلاني ، إبراهيم ، محقق كتاب الصداقة والصديق ، ص ٢٤ .

٦٤ - الصداقة والصديق ، ص ١١٠ - ١١١ .

٦٥ - المصدر نفسه ، ص ٦٩ ، ٨٤ ، ١٢٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ . وانظر أيضاً كتاب : الإمتاع والمؤانسة ، مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ١٦١ .

٦٦ - الصداقة والصديق ، ص ٢٩٦ .

٧٨ - المقابسات ، ص ٣١٥ .

٦٨ - الصداقة والصديق ، ص ٦٩ .

٦٩ - المصدر نفسه ، ص ٦٢ .

٧٠ - المصدر نفسه ، ص ٥٩ .

٧١ - المصدر نفسه ، ص ٤٤ - ٤٥ ، ٦٤ ، ٦٨ ، ١٤٢ .

٧٢ - المصدر نفسه ، ص ٥٤ - ٥٥ .

٧٣ - المصدر نفسه ، ص ٩٨ .

٧٤ - المصدر نفسه ، ص ١٠٤ .

٧٥ - المصدر نفسه ، ص ٢٧٢ .

٧٦ - الصداقة والصديق ، ص ٩٨ .

٧٧ - انظر : البنوي ، نايف ، المضامين الاجتماعية عند أبي حيان التوحيدي ، دراسة تحليلية ، رسالة دكتوراه في علم الاجتماع ، لم تنشر بعد ، جامعة بغداد ، ١٩٩٠م ، ص ٢١٩ .

٧٨ - الصداقة والصديق ، ص ٤٥ .

٧٩ - التوحيدي ، أبو حيان ، البصائر والذخائر ، تحقيق وتعليق : إبراهيم الكيلاني ، مج ٣ ، دمشق ، مكتبة أطلس ، بلا تاريخ ، ص ٦٣٠ . وانظر أيضاً كتاب : الصداقة والصديق ، ص ٣٠٧ .

٨٠ - الصداقة والصديق ، ص ١١١ .

٨١ - المصدر نفسه ، ص ٥٢ ، ١١٩ .

٨٢ - المصدر نفسه ، ص ١١٩ .

٨٣ - المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

٨٤ - المصدر نفسه ، ص ١٠١ . وانظر أيضاً : المقابسات ، ص ٣٦٧ .

٨٥ - «المحبة» عند التوحيدي هي : «منوال العشق .. (و) محاولة ... الاتصال ، اتصالاً يرفع التميز رفعاً ، ويقطع التحيز قطعاً» . انظر : المقابسات ، ص ٣٦٣ .

٨٦ ،٨٧ - الصداقة والصديق ، ص ١٠١ .

٨٨ - Weber, Max. The theory of social and economic organization, New York, The Free Press, p. 116, 117 .

٨٩ - الصداقة والصديق ، ص ١٦٩ .

٩٠ - برجية ، مارك ، «المثل الأعلى للصداقة عند أبي حيان التوحيدي» ، (مجلة المعرفة ، ع ٣٦ ، ١٩٦٥م ، دمشق) ، ص ٧٣ .

٩١ - الصداقة والصديق ، ص ٦٩ .

٩٢ - انظر : أسامة أبو سريع ، مرجع سابق ، ص ٤٣ - ٤٤ .

٩٣ - انظر : مقالة مارك برجيه السابقة ، ص ٦٢ - ٧٥ .

٩٤ - الصداقة والصديق ، ص ٣٠ .

٩٥ - المصدر نفسه ، ص ٦٦ .

٩٦ - المصدر نفسه ، ص ٩٣ .

٩٧ - المصدر نفسه ، ص ٣٤ .

٩٨ - عمر ، معن خليل ، نحو علم اجتماع عربي ، الطبعة الثانية ، عمّان ، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع ، ١٩٩٢م ، ص ١١٤ .

٩٩ - الصداقة والصديق ، ص ١٦١ .

١٠٠ - أرسطو ، مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ٢٢٠ .

١٠١ - الصداقة والصديق ، ص ٣١ .

١٠٢ - أرسطو ، مصدر سابق ، ج ٢ ، ص ٢٨٨ .

١٠٣ - الصداقة والصديق ، ص ٣٢ .

١٠٤ - المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

١٠٥ - أرسطو ، ج ٢ ، ص ٢٦٩ .

١٠٦ - المصدر نفسه ، ص ٢٤٥ .

١٠٧ - الصداقة والصديق ، ص ٨٤ .

١٠٨ - أرسطو ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ - ٢٨٦ .

١٠٩ - الهوامل والشوامل ، ص ١٩٠ - ١٩١ .

١١٠ - الصداقة والصديق ، ص ٥٤ .

١١١ - أرسطو ، ج ٢ ، ص ٢٣١ .

١١٢ - الصداقة والصديق ، ص ٤٤ - ٤٥ ، ٦٤ ، ٦٨ ، ١٤٢ .

١١٣ - أرسطو ، ج ٢ ، ص ٢٣١ .

١١٤ - انظر : أسامة أبو سريع ، ص ٢٢٦ .

١١٥ - الصداقة والصديق ، ص ٦٦ .

١١٦ - المصدر نفسه ، ص ٩٣ .

١١٧ - المصدر نفسه ، ص ٣٦ .

١١٨ - أرسطو ، ج ٢ ، ص ٢٤٠ .

١١٩ - الصداقة والصديق ، ص ٨٤ .

١٢٠ - أرسطو ، ج ١ ، ص ٢٤٥ .

١٢١ - أرسطو ، ج ١ ، ص ٢٥٠ .

١٢٢ - الصداقة والصديق ، ص ٥٤ .

١٢٣ - المصدر نفسه ، ص ١٦٠ .

١٢٤ - المصدر نفسه ، ص ٣٧ .

المراجع العربيـة :

- ابن المقفع ، عبد الله ، الأدب الكبير ، صححه وقدم له محمد مضر أبو المحاسن القاوقجي ، القاهرة ، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح ، ١٩٦٠ .
- الأهواني ، أحمد فؤاد ، أفلاطون ، مجموعة نوابغ الفكر الغربي ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ، دار المعارف ، بلا تاريخ .
- أبو سريع ، أسامة ، الصداقة من منظور علم النفس ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، ١٩٩٣م .
- أرسطو طاليس علم الأخلاق إلى نيقوماخوس ، ترجمة : أحمد لطفي السيد ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٢٤م ، جزءان .
- برجيه ، مارك . «المثل الأعلى للصداقة عند أبي حيان التوحيدي » ، (مجلة المعرفة ، دمشق ، ع ٣٦ ، ١٩٦٥م) ، ص ٦٢ - ٧٥ .
- البنوي ، نايف ، المضامين الاجتماعية عند أبي حيان التوحيدي ، دراسة تحليلية ، رسالة دكتوراه في علم الاجتماع ، لم تنشر بعد ، ١٩٩٠م ، ص ٣٤٧ .
- التوحيدي ، أبو حيان ، الإمتاع والمؤانسة ، صححه وضبطه وشرح غريبه : خليل المنصور ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٧م ، ثلاثة أجزاء .
- التوحيدي ، أبو حيان ، البصائر والذخائر ، تحقيق وتعليق : إبراهيم الكيلاني ، دمشق ، مكتبة أطلس ، بلا تاريخ ، مج ٣ .
- التوحيدي ، أبو حيان ، الصداقة والصديق ، تحقيق وتعليق : إبراهيم الكيلاني ، الطبعة الثانية ، دمشق ، دار الفكر وبيروت ، دار الفكر المعاصر ، ١٩٩٦م .
- التوحيدي ، أبو حيان ، المقابسات ، تحقيق وشرح : حسن السندوبي ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، المطبعة الرحمانية ، ١٩٢٩م /١٣٤٧هـ .
- التوحيدي ، أبو حيان ، ومسكويه ، الهوامل والشوامل ، نشر : أحمد أمين والسيد أحمد صقر ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥١م .

- سويف ، مصطفى ، الأسس النفسية للتكامل الاجتماعي ، الطبعة الخامسة ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٥م .
- عمر ، معن خليل ، نحو علم اجتماع عربي ، عمان : دار مجدلاوي للنشر والتوزيع ، ١٩٩١م .
- ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، بيروت ، دار المستشرق ، بلا تاريخ ، ج ٨ .

المراجع الأجنبية :

- Argyle, Michael. "Social Competence and mental health", M. Argyle (Ed), Social skills and health, Londom and New York, Methuan and Co. Ltd, 1981, pp. 159 - 187 .
- Berscheid, E and Walster, E. Interpersonal Attraction, addison-wesley publishing Co, London, 1978 .
- International Encyclopedia of the Social Sciences, vol. 15. The Macmillan company and the Free press, New York, 1968 .
- Lindzey, Gardner and Byrre, Donn. Meaasurement of social choice and interpersonal attractiveness" in : G. Lindzey and E. Aronson (Eds). The handbook of social Psychology, vol. 2 (2nd ed). London : Addison-Wesley, 1968 .
- Mill. john Stuart. Asystem of logic, Ratiocination and Inductive, being connected view of principles of evidence and the method of Scientific, investigation University of Toronto Press, 1971, Book3.
- Weber, Max. The theory of Social and economic organization, New York. The Rree Press, 1969 .
- Zimbardo, Philipe G. Psychology and life, twelfth Edition, London, Scott, Forman and Company, 1977 .

❖ ❖ ❖